الغزوات الاستعمارية الأسبانية والبرتغالية

فى الشمال الأفريقى

(٨١٨ هـ / ١٤١٥ - ٩١٧ هـ / ١٥١١ م)

د . نبيل عبد الحق رضوان(*)

أصبحت كلمة Reconquista ومعناها الإسترجاع ذات مدلول تاريخى خاص فى تاريخ الأندلس الإسلامية(١) ، فقد بذلت أسبانيا النصرانية جهداً كبيرا لإنتزاع القواعد الأندلسية ، وبدأ هذا الإسترداد منذ وقت مبكر ، منذ قامت المملكة النصرانية الشمالية عقب الفتح بقليل فى حمى الجبال الشمالية ، واشتد ساعدها بسرعة ، واستطاعت منذ منتصف القرن الثانى هجرى - الثامن الميلادى أن توسع حدودها جنوباً ، وكانت أولى القواعد الإسلامية التى سقطت هى «لُك» فى أقصى الشمال الغربى لشبه الجزيرة الإيبيرية ، (واسترقه) فى شمال نهر دويره(٢) ، (وسمورة وشلمنقة وشقوبية وابله) فى الناحية الأخرى من دويرة ، و لم تتأثر الأندلس المسلمة كثيراً بفقد هذه القواعد الأولى لقربها من المملكة النصرانية(٣) .

ولكن الأندلس شعرت بالخطر الحقيقى يداهمها بعد أن استطاع النصارى عبور نهر التاجه(٤) وخاضوا معارك قوية ، واستولوا على طليطلة(٥) ثالثة القواعد الأندلسية هذا وأن قيام المرابطين(٦) قد وضع حداً مؤقتاً لتقدم النصارى فى وسط شبه الجزيرة وشرقها . ومع ذلك قامت موجة جديدة من الغزو النصرانى اجتاحت شمال شرق الأندلس ، فسقطت سرقسطة(٧) ٥١٢ هـ / ١١١٨ م ثم تلتها بقية قواعد الثغر الأعلى (ردة وإفراغة ومكناسة وطرطوشة)(٨) ٥٤٣ - ٥٤٤ هـ / ١١٤٨- ١١٤٩ م وفى نفس الوقت بدأ سقوط القواعد الإسلامية فى غرب شبه الجزيرة فسقطت أشبونة وشنتره وشنترين(٩) فى يد النصارى ٥٤٢هـ/ ١١٤٧ م ،

(*) أستاذ مساعد بقسم التاريخ الإسلامى-كلية الشريعة والدراسات الإسلامية-جامعة أم القرى.

وسقطت باجة(١٠) بعد ذلك بقليل ٥٥٦ هـ /١١٦١ م ثـم تلتهـا يـابرة(١١) فـى ٥٦١ هـ / ١١٦٥ م(١٢) .

وكان أن توقفت حركة الإسترداد النصرانى ، إثر توطيد الموحدين سلطانهم فى الأندلس مدة من الزمن ، لكنهـا لم تلبـث أن عـادت وازدادت إسـتفحالاً بعـد إضمحلال الموحدين فى النصـف الأول مـن القـرن السـابع الهجـرى الثـالث عشـر الميلادى ، وذلك لعدم وجود دولة إسلامية قوية تستطيع إنقاذ الأندلس مـن خطـر تساقط قواعدها . وفى ذلك الوقت العصيب على المسلمين اتحـدت نوايـا الممـالك الأسبانية النصرانيـة علـى مهاجمـة الإمـارات الإسـلامية(١٣) ، وبذلـك اجتـاحت الأندلس موجة عاتية من الغزو النصرانى وتساقطت قواعد الأندلـس التـالدة شـرقاً وغرباً فى يد النصارى ، فسقطت جزيرة ميورقة(١٤) ومدينة بياسة وأبدة(١٥) ثـم مدينة قرطبة(١٦) سنة ٦٣٣ هـ / ١٢٣٦ م ، وإستجه والمـدور وبلنسية(١٧) سـنة ٦٣٦هـ/ ١٢٣٨ م ، ودانيـة ولقنـت وأريولـة وقرطاجنـة ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م وشاطبه ومرسيه وجيان ثم إشـبيلية ٦٤٦ هـ /١٢٤٨ م(١٨) ، كذلـك اجتـاحت غرب الأندلس ، نفس الموجة ، فسقطت بطليوس (١٩) وماردة وشلب وشـنتمرية ولبله ولبه ثم سقطت جزيرة قادس وتلتهـا مدينـة شـريش . وهكـذا لم يكـد يحـل منتصف القرن السابع الهجرى الثالث عشر ميلادى حتى كانت ولايـات الأندلـس الشرقية والوسطى كلها قد سقطت فى يد أسبانيا النصرانيـة بحيـث لم يبـق للدولـة الإسلامية بالأندلس سوى بضع ولايات صغـيرة فـى طـرف شـبه الجزيـرة الإيبيريـة الجنوبى (٢٠) .

والواقع أن الكنيسة القشتالية قد لعبت دوراً بارزاً فى حشد طاقات الممـالك النصرانية الشمالية ضد الأندلس ، ليستمر الصراع بين النصرانية والإسلام على مـر القرون . وترتب على ذلك انتقال الحرب إلى العدوة المغربية(٢١) فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى ، وكانت امتداداً للفكرة الأساسـية التى تطورت من تقدم قوات الممالك الشمالية فى شبه الجزيرة الإيبيرية نحو الجنوب

الأندلسى ، وتصورت تلك الممالك أن انتقـال الحـرب ضـد المسـلمين إلى المغـرب يعنى متابعة للحملات الصليبية(٢٢) ونقل ميدان المعركة من أراضيهم وبالتالى إبعاد شبح الخطر عنهم .

وقد فكر الملك الأسبانى فرديناند قبل أن يتم إجلاء المسـلمين عـن الأندلـس فى أن يعبر بأسطول إلى أفريقية ويغزو هنالك ويفتتح ، وقام أسطول قشـتالة تحـت قيادة أمير البحر ريموند بونفاشيوس بإحراز نصر على الأسطول المغربـى سـنة ٦٤٩ هـ / ١٢٥١ م بيد أنه لم يوفـق إلى الإسـتفادة مـن هـذا النصـر نظـراً لوفـاة الملـك الأسبانى(٢٣) .

كذلك وضع الفونسو العاشر فى السنوات التالية ٦٥٠ - ٦٥٢ هـ / ١٥٥٢ - ١٥٥٤ م ترتيبات لغزو المغرب بموافقة كنيسة روما ، ولكن التخـوف مـن هجـوم أندلسى إسلامى معاكس أدى إلى تأجيل الحملة المذكورة للوقت المناسب(٢٤).

وعندما ازداد تردد تجار الحرب الأسبان على مدينـة سـلا (٢٥) ، وكـثرت سفنهم أمام شاطئها ، وصارت أعدادهم كبيرة فيها عزموا على القيـام بثـورة سـنة ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩ م مستغلين إنشغال الناس بعيـد الفطـر ، واعملـوا السـيف فـى أهلها وقتلوا رجالها وسبوا نسائها ونهبوا الأموال حتى تحكمـوا فـى شئونها ، و لم يستطع السلطان يعقوب بن عبد الحق تخليصهـا مـن أيـدى الأسبان إلا بصعوبـة ، فأقام فيها داراً لبناء الأساطيل البحرية ومراكب الجهاد ، وجلب لها الأخشاب مـن غابات المعموره (٢٦) ، وكانت مدينة سلا ميناءً صغيراً ترسو فيه سـفن تجاريـة أوربية ، وفيها تجهز سفن الجهاد الإسلامية للقيام بأعمـال حربيـة علـى الشـواطىء الاسبانية ، لكن هذه السفن كانت تعود لقضاء الشتاء فى الميناء واسـتطاعت سـلا أن تنزل الضرر بالدول النصرانية وتسلطت عليها حتى قـام الفونسـو الحكيـم سـنة ٦٧٠ هـ / ١٢٦٣ م بـالهجوم عليهـا واحتلالهـا . لكنـه لم يقـم بهـا طويـلاً ، إذا فاجأها ملك الأسبان واستردها ففرت أعداد كبيرة منهم علـى السـفن عـائدين إلى قشتالة(٢٧) التى حملت على عاتقها استكمال إسقاط المدن الأندلسية .

أما هيبة الأساقفة ورجال الدين فقد عانت كثيراً من جراء الحروب المستمرة ضد المسلمين ، فكثيراً ماتولى الأساقفة القيادة ، ورضوا عن أعمال القسوة ، وترتب على ذلك أن تغلبت الوحشية على طباع الشعب ، ورجال الدين وأضفت على الأمة الأسبانية لوناً شديداً من الخشونة والقسوة حتى تحولت إلى نوع من الهمجية المطلقة تحت ستار شرف الفروسية والعاطفة الدينية(٢٨) .

وعلى صعيد آخر لم تستمر البرتغال خاضعة لأسبانيا ، فقد ثارت ضدها وانتصرت عليها فى معركة كبيرة فى تاريخ شبه الجزيرة الإيبيرية ، تسمى معركة الجبروتية AL jabrrota سنة ٧٨٧ هـ / ١٣٨٥ م وهى المعركة التى ثبتت أسرة أفيس La casa de Avis فى عرش البرتغال وفصلتها نهائياً عن قشتالة وأفسدت كل هدف للوحدة الذى كان يحلم به ملوك قشتالة(٢٩) الذين رسموا تقليداً عسكرياً لخوض حرب صليبية حققت من خلالها إمبراطورية عبر البحار فى القرن العاشر الهجرى السادس عشر ميلادى ، وأحرزت عن طريقها الخبرة البحرية التى صارت هى الأساس للتحرك نحو إستيلاء أراضى عبر البحار ، ومن ثم أخذت بزمام المبادرة فى الحرب الصليبية فى العصور الحديثة .

وكانت كلمة غزو بالنسبة لأهل قشتالة تعنى تثبيت الوجود الأسبانى ، وضمان المراكز القوية وشراء الممتلكات من الشعوب المقهورة ، هذا الأسلوب الحربى عرف فى أسبانيا فى عصور سابقة وأعيدت تجربته فى شمال أفريقيا على الرغم من وجود موانع طبيعية حدت من إمكانيات نجاحه ، وذلك بسبب صعوبة تضاريس البلاد ، وقلة الغنائم ، إذ قدمت أفريقية القليل مما يجذب المحارب ، الذى كان هدفه فى ذلك الوقت الحصول على عائدات مادية بمجهوده بدلاً من الروحية، لذلك انخفض حماس الخدمة العسكرية لدى الأسبان فى أفريقية إنخفاضاً سريعاً(٣٠) .

* * *

وكان من الطبيعى أن تصبح البرتغال من أسبق ممالك الجزيرة الأيبيرية مقاومة للمسلمين بحكم الظروف التاريخية ، إذ تأخرت أسبانيا عنها بسبب إنشغالها فى تحقيق الوحدة الوطنية وفى حركة الإسترداد ضد المسلمين (٣١) .

وتؤلف البرتغال شريطاً ساحلياً طويلاً يمتد بمحازاة السواحل المغربية المطلة على المحيط الأطلسى من شبه جزيرة ايبيريا ، ويبلغ طول هذا الشريط نحو ثلاثمائة ميل وبه كثير من الموانىء العميقة المحمية ، وبذلك توفر لدى البرتغاليين الفرصة لبناء مجد بحرى(٣٢) ، خاصة وأنها تتمتع بموقع استراتيجى هام لوجودها على الطرق التجارية المؤدية إلى موانىء البحر المتوسط وشمال غرب أوربا ، مما جعلها أقرب إلى السواحل الإفريقية ، مما أعطاها أهمية تجارية واستراتيجية تجلت فى عاصمتها لشبونة التى غدت مركزاً لتجارة غرب إفريقية المستوردة إلى غرب أوربا. وهذا بدوره عاد على البرتغال بنتائج عظيمة إذ وفرت لها الأموال اللازمة التى ساعدت ملوك لشبونة على توحيد أجزاء البلاد الداخلية ودفعتهم فى الوقت نفسه إلى الإهتمام بالأساطيل البحرية وتشجيع التجارة مع الخارج والعمل على الوصول إلى التوابل لإحتكار تجارتها(٣٣) . وانشغل الملوك من أسرة أفيس فى ذلك ، فى خلال القرنين التاسع والعاشر الهجرى الخامس عشر والسادس عشر الميلادى(٣٤) . وهكذا أصبحت البرتغال نصيرة النصرانية وراعيتها ضد الإسلام ، كما استمرت الروح الصليبية مستمرة بل لقد أخذت تزدهر مكتسبة قوة على قوتها فى شبه الجزيرة الإيبيرية خلال الفترة المذكورة(٣٥) .

ولما كان المغرب بموقعه الجغرافى أقرب نقطة إلى غرب أوروبا ، وشبه جزيرة ايبيريا ، فضلا عن امتلاكه سواحل طويلة على المحيط الأطلسى ، فقد اتجهت إليه أنظار البرتغال والأسبان ، فأخذوا يخططون ويعملون على احتلال مناطق مختلفة من سواحله ، مستغلين فرصة أوضاع المغرب الداخلية السيئة بسبب ضعف السلطة المركزية فى فاس ، وظهور وحدات سياسية متعددة ، وما أعقب ذلك من انتشار للفوضى والإضطرابات وإختلاف الميول السياسية مما ترتبت عليه نتائج وخيمة على البلاد(٣٦) .

وترجع أصول حركة النزوح البرتغالى والأسبانى إلى مـا حـدث بـين هـاتين الدولتين من نزاع حول ملكية جزر كناريـا التـى اعتبرهـا الطرفـان نقطـة انطـلاق وتوسع فى غرب أفريقية . ولأهمية هذه الجـزر لم يشـأ كـل منهمـا التنـازل عنهـا للآخر ، مما دفعهما إلى تحكيم البابا فى روما ، الذى منح البرتغاليين بعد ذلك براءة تجعل الأماكن التى فتحت فـى المنـاطق المجـاورة وكذلـك الشـاطىء الأفريقـى مـن نصيب التاج البرتغالى . وكان طبيعياً للسفن البرتغالية أثناء سيرها محاذية للسـواحل المغربية فى إتجاه جزر كناريا وغربى أفريقيا أن تضطـر إلى الوقـوف ببعـض المراكـز المغربية للتزود منها أو للتبـادل معهـا ، الأمـر الـذى جعـل البرتغـاليين والأسـبانيين يطلعون على الكثير من شئون البلاد وأحـوال الشـعب المغربـى وماكـان عليـه مـن انقسام داخلى لضعف السلطة فى فاس ، وعجزها إدارة الشئون العامة فى البـلاد ، كذلك حدث وأن تعرضت بلاد المغرب فى أواخر القرن التاسع الهجـرى الخـامس عشر ميلادى لنكبات طبيعية تجلت فى الطاعون والمجاعة اللتين عمتا البلاد لا سـيما المناطق الشمالية منها ، فوجد البرتغـاليون فـى ذلـك فرصـة سـرعان مـا اسـتغلوها لاحتـلال مركـز هـام فـى شمـال المغـرب هـو مدينـة سـبتة ٣٧) التـى تتمتـع بموقـع استراتيجى لإشرافها على الطرق التجارية البحرية بين جنوب أوروبا وشمالها الغربى عبر مضيق جبل طارق . يضاف إلى ذلك مناجم الذهب التـى طالمـا سمـع البرتغـال بوجودها بهذه المدينة المغربية(٣٨) .

وفى تلك المرحلة ظهر هـنرى المـلاح (٧٩٧ - ٨٦٥ هـ) / (١٣٩٤ - ١٤٦٠ م) الذى كان رجلاً مسيحياً متقشفاً نشطاً من شـخصيات عصـر النهضـة البارزين ، جاء التزامه للكشف والإرتياد بغرض توسيع المعرفة الإنسانية لكنه كـان يعبر عن تصميمه على حمل العلم المسيحى ونشره فـى العـالم الإسـلامى ، وحـاول بقدر الإمكان الإتصال بحاكم الحبشة النصرانى برسـترجون Prster John والعمـل معاً نحو تقويض مركز الإسلام(٣٩) .

وكان خوان دا أفيس الأول قد أنجب أربعة أبناء ذوى نجابة وهمة ، منهم الأمير هنرى الملاح . وإليهم يعود الفضل فى دخول البرتغال عهد الإستعمار والغزو ، ففى ١٣ جماد ثانى ٨١٨ هـ / الموافق ٢١ أغسطس سنة ١٤١٥ ، استولت البرتغال على مدينة سبتة Ceute على ساحل البحر المتوسط بقيادة هنرى وأخويه بدرو وإدوار فدخلوها وأنشأوا فيها سوقاً ثغرياً Frontera يحرسه ألفان وخمسمائة من المقاتلين وكان هذا العدوان البرتغالى على الأراضى الإسلامية فى المغرب نذيراً بتحول حاسم فى تاريخ المغرب(٤٠) ، وكانت دولة البرتغال فى ذلك الوقت تتمتع بالأستقرار السياسى والاقتصادى بحيث صارت منيعة الجانب ، وفى هذا العهد حظيت البرتغال بجيل من الرجال الأقوياء ، قوامه التجار والبحارة والمغامرون ، رفضوا الإكتفاء بالطرق التجارية المألوفة آنئذ ، وأخذوا يسيرون فى طريق الإستعمار الذى أمدهم بروح الحماس للغزو وجمع الغنائم والأسلاب وهدم القلاع والحصون(٤١) وذلك بعكس هنرى الذى كانت روحه صليبية بالمعنى الواضح المحدود . وامتداداً لما سبقها من حملات مشابهة ، فقد كان هذا الأمير صليبياً متعصباً يحمل بين جنبيه للإسلام والمسلمين حقداً دفيناً ، وكانت كل مجهوداته تهدف إلى تحقيق أغراض صليبية حتى نشاطه التجارى كان يرمى من ورائه إلى تقوية البرتغال ثم صرف هذه القوة فى حروب ضد المسلمين . ولذلك جمع الصيادة المهرة وجعل منهم بحارة وحول سفن الصيد إلى سفن للحرب والنقل ، واستقدم من إيطاليا وصقلية بعض الملاحين المهرة ، وأسس مدرسة علمية عين فيها الفلكيين ورسامى الخرائط والملاحين لتدريس استعمال الإسطرلاب والبوصلة . وبدأ فى بناء السفن الكبيرة(٤٢) وكان الدون هنرى الملاح يشغل منصب رئيس طائفة المسيح Las jesuitas EL Algovre وحاكماً لولاية الغرب البرتغالية(٤٣) ، التى شهدت سواحله وموانيه نشاطات بحرية عارمة خاصة ، على سواحل كنتبريا ، والتى تجلت فى أعمال الصيد والمبادلات التجارية التى كانت آخذه فى الإزدياد مع سكان أوروبا الشمالية الغربية . هذه النشاطات كانت بمثابة إعداد نفسانى فى سكان الموانى هيأهم للإشتراك فى رحلات بعيدة المدى(٤٤) .

وكان البرتغاليون يهدفون باستيلائهم على سبتة أن يحققوا الإمتداد خارج البحار ، بعد أن عجزوا عنه داخل شبه الجزيرة الأيبيرية . كما هدفوا به إلى نيل الحظوة عند البابا الذى كانت تتأرجح كفتا الميزان عنده بين أسبانيا والبرتغال فيميل مرة إلى ملوك أسبانيا وهم يقضون على البقية الباقية من أرض الإسلام بها ، ويميل مرة أخرى إلى البرتغال حينما يفتك أسطولهم بالأساطيل الإسلامية القادمة من المغرب ، تجاه السواحل التى تمتد من المضيق إلى مياه (بورتو) البرتغالية .

كانت سبتة تتحكم فى المضيق كمركز لإغاثة دول الإسلام بالأندلس ، كما كانت من الناحية التجارية المركز الأول فى هذا المضيق تؤمه سفن التجارة من أكثر الموانىء الإسلامية الشرقية والأندلسية وغيرها ، فكان الإستيلاء عليها هدفاً للبرتغاليين الطامعين فى الأسواق الخارجية(٤٥) .

وعندما توفى الدون جوان الأول مؤسس الأسرة الحاكمة وهى أسرة أفيس، خلفه على عرش البرتغال ابنه دورات ١٤٣٣ - ١٤٣٨ ، وألح عليه أخوه هنرى الملاح ، وكذلك أخوه الثانى فرناندو والملكة الأم دونيا ليونور Leonore فى الإستيلاء على طنجة(٤٦) ، وذلك حتى يدركوا فخراً باستيلائهم على ثغر من ثغور المغرب ، يضيفونه إلى سبتة ويوسعون به مامملكوه من أعمالها ، فركبوا قراصينهم(٤٧) فى ستة آلاف عسكرى ونزلوا بسبته . ثم زحفوا إلى طنجة سنة إحدى وأربعين وثمانمائة الموافق ١٤٣٧ وحاصروها وضيقوا على أهلها(٤٨).

وقد نهضت القوى المغربية لمواجهة الغزو البرتغالى ، يتقدمهم أبو زكريا يحى الوطاس فى الوف من الجند المتطوعة ، وهناك أحاطوا بالقوة المحاصرة للمدينة وشددوا الخناق عليها ، واضطروها إلى التسليم ، واشترط أبو زكريا يحى للإفراج عنهم وعن فرناندو بتسليم ثغر سبتة ، فجنح البرتغاليون إلى السلم فسالمهم المسلمون ، إلا أن فرناندو توفى فى أسره ولم يسلم سبتة (٤٩) التى كانت أول قاعدة برتغالية على الساحل المغربى ، ويبدو أن البرتغال أختارت هذه المدينة حتى تتمكن من شطر المغرب الإسلامى إلى قسمين حتى تسهل عملية إجتياحه ، إذ

أنهم قاموا بعد ذلك بمحاولات أخرى على ساحل البحر المتوسط ، غير أن المقاومة المغربية إضافة إلى حركة الجهاد البحرى فى ممر جبل طارق والبحر المتوسط كانتا تسبب للبرتغاليين الكثير من المتاعب(٥٠) ، كما اجتاحت المغرب الأقصى موجة من الحماس الدينى حمل لواءها شيوخ الطرق الصوفية فى الوقت الذى ترددت فيه الحكومة فى الإقدام على إعلان الحرب الشاملة على الأعداء(٥١) بل نجد ملوك المغرب يعتذرون للمهاجرين من سبتة واللاجئين بفاس ، عن عدم القدرة على استرجاع المدينة وانقاذها ، ويمينهم بما تقضى به من أحكام التنجيم وخرافاته(٥٢).

استمرت مقاومة المجاهدين المغاربة قائمة على مجهوداتهم الذاتية ، لذلك لم يحققوا انتصارات حاسمة على القوى النصرانية التى أخذ نشاطها يتزايد فى المغرب الأقصى ، خاصة بعد أن وجدوا الحكومات المغربية بعيدة عن المقاومة ، بل أخذ رؤوسها يهتمون فى القضاء على بعضهم ، فهم بذلك أبعد ما يكونون عن تكوين وحدة إسلامية يواجهون بها الخطر على الأمة ، فشمال أفريقيا بوجه عام والمغرب الأقصى بوجه خاص كان يشهد عندئذ نوعاً من التفكك السياسى ، مما سهل مهمة الدول المسيحية فى الغزو والسيطرة على ذلك الجزء المهم من العالم الإسلامى ؛ وذلك عكس ما كانت عليه الأمم النصرانية التى كانت تشهد فى تلك الفترة تكوين الدول الحديثة ، وما يتبعها من تكون الحكم المركزى ، وبذلك استطاعت أن تفرض سيادتها على كثير من الأراضى فى قارات العالم .

وكان أن تشجع البرتغاليون وعادوا إلى غزو المغرب ، فقام الملك الفونسو الخامس بحملة كبيرة على شمال المغرب استولى فيها على القصر الصغير(٥٣) سنة ٨٦٢هـ/ ١٤٥٨م(٥٤) . وكان يهدف بهذا إلى منع المغاربة من تجهيز السفن الحربية بها وإعدادها لغزو الشواطىء المسيحية ، والاستفادة من الغابات المحيطة بها ووقف النشاط الكبير للسفن المسيحية المارة عبر مضيق جبل طارق(٥٥) وقد أنزل الفونسو بأهل القصر الصغير مذبحة رهيبة على عادة البرتغال فى حروبهم مع المسلمين فى تلك العصور ، وشجعه على العمل الهمجى قلة المقاومة من جانب

حكام فاس ، فتمادى فى عدوانه . ثم عاد إلى المغرب وهاجم طنجة ، فقاومه أهلها مقاومة باسلة اضطرته إلى العودة إلى بلاده(٥٨) .

وقد خشى سكان طنجة من إنتقام الملك البرتغالى ، بعد أن أوقعوا بجيشه خسائر فادحة فى القتلى والأسرى ، ولكن السكان علموا أن مولاى الشيخ عاد إلى حرب فاس ، فصاروا محرومين من أى سند ، لذلك عزموا على الجلاء عن المدينة ، وأخذوا ما يمكن حمله ، ثم انسحبوا دون إضرام النار فى المدينة حتى لاينكشف أمرهم ، ولما تأكد الملك البرتغالى من رحيل السكان أرسل أحد قواده للإستيلاء عليها فى ٢٨ أغسطس ١٤٧١ م ، ثم انتقل إليها قادماً من اصيلا (٥٧) التى استولى عليها قبل طنجة بأربعة أيام وتلقب ملوك البرتغال من ذلك الوقت بملوك مادون البحر وما وراءه ، وكتب الملك البرتغالى إلى البابا والملوك المسيحيين يخبرهم بنبأ النصر(٥٨) .

وعلى إثر تلك الانتصارات المتتالية للقوى البرتغالية فى بلاد المغرب الأقصى، وفى ظل غياب الحكومات والقوى السياسية الإسلامية عن المشاركة فى موجة الحماس الدينى وإعلان الحرب أو حتى التعبئة على البرتغاليين ، نجد بعض القوى المحلية المغربية تعبر عن رضاها بالنزول النصرانى على الأرض الإسلامية ، لتوضح بجلاء مدى الوهن والضعف الذى أصاب تلك القوى ، مما شجع الملك البرتغالى على التمادى فى حركة النزول بعد أن ضمن مساندة حكامها أو عدم مقاومتهم على الأقل . وقد بعث حاكم آزمور(٥٩) فى ١٦ أغسطس ١٤٨٦ م إلى الملك البرتغالى برسالة يطلب فيها الحماية ، قال بعد الحمد لله .

« السلطان الكبير المعظم الخطير الفاضل الشهير أحسن النصرانية دماً ، حايز الفضايل والوفاء جماً أكثر الناس عدلاً وأوفرهم فيه سهماً من حيات بحياته الأرض ومن شعاع عدله طاعته(٨٠) تما ، أوفى الخلايق عقلاً وأحسنهم خلقاً وفهماً ..... للمسكين مأوى للملهوف ركناً للغريب عماً ، بطل شديد ، فارس صنديد له معمعة الحرب فى سمورة يوماً ...خير النصارى فكلهم حاز الروم كلها

حلماً(٦١) .. مولانا دون جون ارشده سلطان برتقال والغربيين وكناية الدهبيين(٦٢) يقبلون يديكم مع رجليكم الكريمة خدماؤكم الموهوبون اليكم بالنفس والمال والأهل قبيلة بنى هنا وخاصتهم وعامتهم وكافتهم وجمهورهم أصحاب مدينة ازمور حفظهم الله ... ونحن نعرفكم يامولانا أننا نحن كنا ، صرفنا إليكم مع فارسكم مرطين رينال ثم بعد ذلك مع جون فرانسيس فارسكم الذى وصلنا كتابان أثنان واعلمناكم بكتبنا كيف نحن لكم خدم موهوبون وفى حبكم ورعيكم راغبون وذلك كله بقلوب صادقة ، ونفوس خالصة ، لتكون حرمتك علينا وعلى جمع قبيلتنا ومدينتنا وأن تكون لنا مأوى .. فاعلم أن وقع وفاقنا على صلحكم وعافيتكم واردنا له واخترنا أن تكون لنا حبيباً ومولاً والتزمنا ذلك وتحملناه عن طيبة نفس منا وصفاء خاطر من دون غش ولاتدليس ولاغدر ولافساد وألتزمنا أن تقضوا حوايجكم ومسايلكم إذا أمرتمونا بأى أمر كان وأن نبروكم ونخدموكم ويخدموكم كما يعملون أهل طاعتكم وبلادكم ، ولتأكيد هذه المعرفة وصحتها أيها السلطان الكريم نصلوكم فى كل سنة بعشرة ألف شابل(٦٣) ... وأن جميع مايأتينا من الأجفان من عندكم بأنواع تجارتكم وعزوضكم - وكذلك فيما يبغون ويشترون عندنا ويطلعون لعندكم أن لا مغرم عليها ولا عادة ... والتزمنا أن ندخلوا راجلكم لبلدانا ومدينتنا وتجاركم ورجالكم وكتابكم وكل من يأتى من قبلكم لوجه البيع والشراء وإن نكرموهم غاية الإكرام ونعاملوهم بكل فضيلة رعياً لجانبكم ونعملوا جميع ما يأمروننا به عنكم وفى اسمكم من دون أن تخالفوهم فى قول ولا عمل ... وزدنا فى الالتزام والتزمنا إليه وذلك لجميع رجالكم وعمالكم أن تعينوا لهم داراً ومنزلاً أين يكونون مأمونين على رؤوسهم وأموالهم أين يرضون، وأن لم يرضون أن نتركوهم يبنون لأنفسهم موضعاً داخل المدينة وأن من اليوم لقدام نكونوا تحت رعايتكم وولايتكم وحفظكم وإنكم تكونون العين الباهرة على جميع حزبنا .. والذى نحن نطلب منكم أن تعرفوا بهذا أهل بلادكم وملككم ولقيادتكم وافنادكم وقباطنكم وجماهركم ... ونحن نطلب منكم أنكم تكتبون لبنى عمكم السلاطين الفيشين(٦٤) وغيرهم من السلاطين

النصارى وغيرهم ممن بينكم وبينهم العافية وكذلك لجميع أهل بلادكم أن لايصلونا بعيب ولاباداية لا فى البر ولا فى البحر وإن يكونوا كلهم على يقين من تميينكم معنا ، وكيف نحن من جملتكم .. كتب هذا التقييد خديم مولانا بامره أخاكم حقاً الغريب محمد بن قاسم الرعينى خطيب اخوانكم الغرباء(٦٥) فى حينه تاب ا لله عليه وأصلح حاله مسلما عليكم(٦٦) » .

وهكذا استمرت الحماية البرتغالية على أزمور ، وأخذ الملك البرتغالى يبعث نواباً عنه فأساء بعضهم إلى سكان منطقة دكالة . ومن ذلك ماوضحه أحد حكام المنطقة فى رسالة بعثها إلى الملك البرتغالى فى ديسمبر ١٥٠٢ يقول فيها (بيد أمير قومه سلطان برتغال والغربيين .. الحمد لله وحده ولارب غيره ولامعبود سواه الكتاب إلى أمير قومه وسلطان بلاده دوا منول بفضل ا لله تعالى سلطان برتغال والغربيين ومولا كناوة الدهبان(٦٧) وغيرهما .. نريد من كمال فضلك أن تعمل لنا غرضنا وغرضك فيما نطلبك فيه ونكون له مطيعين بأن الرجل الذى بعث لبلادنا ماجاء على عقولنا وخسر عليكم كثيراً مالا تقدر وتصلح ونعلمك بأنه هو بخير مع النصارى أو مع المسلمين ولا مع اليهود ولا يعمل إلا برأيه ولا يستمع لمن يدبر عليه ونحن أهل البلد نقول له اعمل ما يصلح على السلطان وعلى الناس وأبى أن يأخذ لنا كلاماً واشتغل أيضاً يشترى المسلمين(٦٨) ونحن نخاف عليه من المسلمين أن يقتلوه ويؤخذ لنا عارك أما هو ما علينا منه وأنت ياسلطان برتقال إذا حبت حوايجك تنقصنا من بلادنا ونكون خدامك تبعث لنا رجلاً آخر يكون بحال بن مرتن(٦٩) يكون عاقلاً عارفاً بالمسايل وهادا لايحبنا بعد هاده المره ، وهادا أوكد حوايجنا عندك .. وهادا ما عندنا والسلام عليكم وعلى من تعلق بكم والرحمة والبركة (من خديمك سالم بن عمر)(٧٠) .

وقد ظهرت مقاومة للوجود البرتغالى من جانب بعض المغاربة ، الذين شنوا غارتهم على الحامية البرتغالية ، فأرسل الملك البرتغالى قوة عسكرية لتأديب

الخارجين ولإظهار مدى قوة البرتغاليين ، فندم أهـل مدينـة أزمـور وبعثـوا برسـائل عديدة للملك البرتغالى الذى لم يجبهم عليها على الرغم مـن إلحـاح الحـاكم . ولمـا توسلوا إليه بزوجته بعث إليهـم برسـالة فيهـا شـروط العفـو والتهديـد والتـأنيب ، وذلك فـى ٢٢ إبريـل ١٥٠٤ إلى « .. هـاذا الاشـياخ الفضـلا والرؤسـاء الأمنـاء والخاصـة والعامـة .. أهـل أزمـور نحـن ظـون منـوال بفضـل ا لله ونعمتـه سـلطان البرطقال والغربيين وصاحب كناوة .. مستفتح(٧١) أقـاليم غربيـة وأمصـار وجـزر وبحار وأقاليم هندية وأوطان فرسية ثم بلاد الكو .. سـلام يراجـع سـلامكم وبعـد وصلنا كتابكم وفهمنا جميع ما تضمنه كتابكم وخطابكم ، وقد ذكرتم لنـا مـاوقع عندكم من الندامة على من صدر من فعلكم فى النازلة التى أحدثوهـا عندكـم ... وطلبتم العفو منا .. والصفح عليه وإن تتموا على صلحنا وعهدنا ... وأشـرتم فـى كتابكم بجميع المحبة والنصيحة الينا ، ومهما أنكم ما حمـدتم ا لله عـز وجـل مولانـا ولا شكرتموه على ما منحكم وأعطاكم من صلحنا معكم الذى كنتم تحـت رعينـا وحفظنا ، وحملكم نظركـم الفاسـد على هتـك العهـد والميثـاق الـذى كـان بيننـا وبينكم ومددتم أيديكم فى أمر ليس بواجب عليكم بـل كـان مـن الأمـر الواجـب والعهد اللازب ، رعـى مسـايلنا عـادة وخدمتنـا والاسـتحفاظ عليهـا ، فنـازلتكم واقعكم كانت أولاً للتأديب والتعزيز من العفو والصفح ، وإن كانت عـادة الملـوك أمثالنا الصفح والغفران كما قلتم ، وقد كنتم قد كتبتم قبل هذا و لم يصلكـم عليـه جواب، فسبب ذلك كان الحرج الذى لحقنا من جهتكم ومن فعلكم القبيح الـذى أدركنا من نحوكم ، وكنا عاملين على أدبكم وتعزيزكم لاشك فيـه وإن نكـافيكم بفعلكم ونجازيكم عليه ونتركوكم مثلاً وموعظة لمن ينقضوا عهد ... فبهـاذا كـان مقصودنا وإننى حين كتبتم واعترفتم بذنبكم وتوسلتم بـأقرب الينـا واحبهـم لدينـا السلطانة زوجتنا التى عنكم قصدتنا . فنحن عنكم عفونا واسمحنـا لكـم(٧٢) فيمـا مضى ، وغفرنا لكم ماوقع منكم ، وذلك إن أوفيتم بما قلتم فى كتابكم برد جميـع ماأخذتم الينا ولرجالنا(٧٣) » .

وأسفى إحدى مدن اقليم دكالة بالمغرب تقع على شاطىء المحيط الأطلسى لها أسوار متينة عليها سبعة وثمانون برجا ، ودائرتها ألف وثلاثمائة وسبعون مقياساً زراعيا(٧٤) والأراضى المحيطة بها غنية بالقمح والمواشى ، والتجارة فى أسفى لابأس بها ، وقد نشبت حروب أهلية بسببها ، الأمر الذى جعلها فريسة للبرتغاليين(٧٥) .

وقد حدث أن بعض التجار البرتغاليين نصحوا ملكهم بأن يأمر بتجهيز أسطول يمكنه من أن يستولى على المدينة ، وبعد أن تأكد الملك البرتغالى من أن سكان أسفى منقسمون إلى طوائف ، قدم الملك داراً حصيناً ينقل إلى أحد رؤساء هذه الطوائف - ويدعى يحيى بن تعفنت الهدايا - وبذلك تمكنت البرتغال من أن توثق أمتن الصلات مع يحيى بن تعفنت الذى اتفق على أن تأخذ البرتغال المدينة بدون صعوبة ، وأن يبنى الملك الأسلحة ويزوده بالمؤن . وبعد ذلك ظهر أسطول برتغالى فجأة أمام المدينة ، مزود بجميع أنواع الأسلحة وقطع المدفعية الثقيلة علاوة على كميات وافرة من المؤن ، وكان على ظهر الأسطول خمسة آلاف من الجنود والمشاه ومائتان من الفرسان . لذلك خاف المغاربة من تلك القوة وخرجوا من المدينة ، وبقى فيها رئيس المدينة الذى وافق على بناء الدار البرتغالية واستولى قائد الأسطول على أسفى فى شعبان ٩١٣ هـ / يناير ١٥٠٨ م(٧٦) .

وقد أشتط البرتغاليون فى معاملتهم لسكان المغاربة ، الذين تضايقوا منها ، وذلك بعد أن قام العامل البرتغالى بأعمال إستفزازية ضد السكان ، فضلاً على قيامه بأعمال تعسفية من قتل ونهب للمسلمين ، ورغبته فى التوسع خارج مدينة اسفى . وهذا ما تظهره الرسالة التى بعثها أعيان اسفى إلى الملك البرتغالى فى ٢ يوليو ١٥٠٩ يشكون إليه أعمال عامله « الحمد لله وحده وإليه يرجع الأمر ولابد من لقايه ولا ينجح هارب من قضايه وإذا ضاقت كان الفرج من عنده ، ضيفنا ومولانا السلطان ضون متوال حفظه الله . خدامك بل عبيدك الساكنون تحت اعلامك وطاعة الله وطاعتك فى بلدتك بلدة أسفى هم يسلمون عليك

ويقبلون يديك والأرض تحت قدميك ، ومما نعلمك به يامولانـا بـأن نحـن جـازت علينا شدايد وأهوال ونحن تحت طاعة الله وطاعتك من المخاوف والمجاعات والمحـن الكثار والغباين من المسلمين والنصارى ، ونحن يامولانا أعلمناك بذلك كله وكتبنـا لك يامولانا جملة من الكتب ... ونحن شكونا عليك فيهم لين مارأينا ، مـن يقبـل شكوتنا إلا الله وأنت ترانا نجمع لك ذلك كله فى كتابنا هذا ونختصر لك فيه أول يامولانا ما نعلمك به بأن نحن ماكرهنا عبد الرحمن إلا فى حق الذى عصـاك ، و لم يدخل تحت طاعتك ولارحنا حتى قتلناه ، وقلنا خرجنـا مـن العـذاب ودخلنـا فـى الجنة ، إنما دخلنا تحت طاعتك ، فاصرفنا يامولانا فى الوقت والحين لعاملك ديـوغ الدلزنبوج وأدخلناه فى دارك وخرج للقايه كل من كان فى أسفى وتقبلناه بأحسن القبول ، كل ذلك يامولانـا محبـة فيـك ، ونحـن يامولانـا قـادرون ندخـل سـلطان مراكش ومولاى زيان بن أزمور ، وكان بأسفى رجال كانوا أهلا للشياخة ونحـن يا مولانا اخترناك ورضيناك من دون هؤلاء ... ».

ثم تقدم الأسطول البرتغالى نحو مدينة أزمور وأنزل قواته فيها ، واصطدمـت بقوة مغربية أرغمتهم على الرجوع إلى سفنهم إلا أن الملك البرتغـالى عـاد وأرسـل أسطولاً آخر احتل آزمور فى جمادى الثانية ٩١٩ هـ / أغسطس ١٥١٣ م(٧٧) .

وعندما بلغ الملك البرتغالى أن ميناء المعمورة جيد ، وأرضها نافعـة ، أرسـل فى ٩٢١ هـ / ١٥١٥ م أسطولاً حربياً ليشيد حصناً على مصب نهر سبو ، حيث توجد أطلال مدينة المعمورة ، ولتساعده على غـزو مملكـة فـاس ، إلا أنـه ظهـرت مقاومة عنيفة مـن قبـل المغاربـة والمسلمين الأندلسـين ، أجـبرت البرتغـاليين علـى الإنسحاب دون تحقيق نصر حاسم(٧٨) .

* * *

يتبين لنا من خلال ذلك تركيز البرتغال علـى إحتـلال الموانـىء المطلـة علـى المحيط الأطلسى ، وبذلهم المحاولات الكبيرة والمضنية فى سبيل السـيطرة علـى تلـك الموانىء ، فسيطروا على أسفى وأزمور ومدينة سبته ، كما احتلـوا أصيـلا والحمـر فى ربيع الأول ٨٧٦ هـ / أغسطس ١٤٧١ ثم مدينة الجزيـرة (٧٩) فـى رمضـان ٨٨٤ هـ / ٢٧ أغسطس ١٤٨٩ م (٨٠) إن ذلك التركيز على تلك الموانـى سببه أهتمام البرتغالين بالتوصل إلى الهنـد والشـرق بحـراً ، للوصـول إلى مواطـن التوابـل وانتزاع تجارتها من أيدى الإيطاليين والمماليك ، ويعد اكتشاف طريق رأس الرجـاء بداية تطور هام بالنسبة لعمليات التوسع البرتغالى فى السواحل المغربيـة وبـالأخص سواحل البلاد الجنوبية التى ازدادات أهميتها بحكم وقوعهـا واشـرافها علـى طريـق التجارة الجديد ، إذ كان علـى السـفن التجاريـة البرتغاليـة العـائدة مـن الشـرق أن تقـترب كثـيراً مـن هـذه السـواحل لوجـود جـزر كناريـا التـى كـانت فـى قبضـة الأسبانيين. وبهذا أثيرت قضية حدود مملكة فاس من جديد بين الأسـبان والبرتغـال وازداد نزاعهما لإدراك كل مـن الفريقـين مـدى أهميـة هـذه السـواحل مـن بـلاد المغرب الجنوبية فى مراقبة طرق الهند البحرية (٨١) .

والواقع إن التنافس البرتغالى الأسبانى أوقع معظم سواحل المغـرب الشـمالية والغربية تحت سـيطرة الحكـم الأجنبـى ، ممـا زاد فـى ضعـف البـلاد وقـوى الفـتن الداخليـة ، ممـا مكـن البرتغـاليين مـن هتـك أعـراض النـاس ، واغتصـاب النسـاء المسلمات وإنتهاك حرمات بيوت الله ، وهى محن أظهرتها الرسائل السابقة.. وقـد حدث كل ذلك فى ظل غياب الوحدة الإسلامية فى بلاد المغرب ، وعـدم وجـود سلطة دولة إسلامية تستطيع أن تقف أمام الأعمال العدوانية ضد المسـلمين . هـذه هى الأوضاع التى كان عليها المغرب فى مطلع العصر الحديث : وحدات سياسـية متعددة نتجت عـن ضعـف السـلطة المركزيـة فـى فـاس ، واضطـراب اقتصـادى ، وفوضى اجتماعية ، زادتها تأخراً أنماط الحياة المختلفة وسيادة المجتمع القبلى . وزاد

الأوضاع تعقيداً الأخطار الخارجية المتمثلة فى عمليات الإحتلال الأجنبى لمعظم السواحل المغربية ، مما أنذر بإكتساح كل البلاد إن لم تعبأ جميع الطاقات الموجودة بالبلاد للوقوف بها صفاً واحداً لمواجهة الخطر الداهم ،ولكن هل كان من الممكن توحيد كل الطاقات والوحدات السياسية لمواجهة الخطر الخارجى ؟؟ . هنا تبرز أهمية وجود الدولة العثمانية ، لتوحيد الجهود فى الزود عن حياض الإسلام ودفع الخطر عن المسلمين وصيانة حقوقهم ، ورعاية مصالحهم ، ولتضطلع الدولة العثمانية بمهمة جديدة ودور جديد يتمثل فى حماية الحدود الجنوبية للعالم الإسلامى ، وذلك بصد الخطر البرتغالى وإنهاء وجوده فى أول نقطة انطلاق من المغرب نحو طريق الهند .

* * *

ولم يكن المغرب الأوسط (الجزائر) أحسن حالاً من المغرب الأقصى فى النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية مما شجع الأسبان على التوسع والسيطرة على سواحله بإقامة جيوب صليبية لمطاردة المورسيكين ومعتنقى الاسلام إينما وجدوا للتنكيل بهم ، وذلك بعد أن شعر الأسبان بالقوة والسيادة عقب اكتشاف أمريكا ، ورغبوا فى احتلال قواعد فى الشمال الأفريقى لإمتلاك الموانى والأسواق التى يستطيعون منها أحتكار تجارة المعادن النفيسة والتوابل التى ترد إليهم عن طريق القوافل من وسط أفريقيا ولمزاحمة الجمهوريتين الايطاليتين جنوه والبندقية واللتين استقلتا واحتكرتا التجارة بين الشرق والغرب مدة طويلة (٨٢) .

وكان المغرب العربى بعد سقوط دولة الموحدين مقسما إلى ثلاث دول ورثت أمجاداً عظيمة وتمتعت بنهضة علمية فى ميادين العلم والعمران ، وتلك الدول هى الدولة الحفصية بتونس وطرابلس والشرق الجزائرى ، ودولة بنى زيان بالمغرب الأوسط (الجزائر) ، ودولة بنى مرين بالمغرب الأقصى .

وقد أخذ أزدهار هذه الدول فى الإنحلال تدريجياً وسادتها الإنقسامات والحروب الداخلية بين الطامعين فى العرش ، فساق ذلك عليها المحن والفساد ، واستمرت حروب بين تلك الدول تقود الحفصيين تارة إلى فاس والمرينين إلى تونس، بينما وقعت دولة بنى زيان فريسة بينهما ، تنتمى مرة للأولى ، وأخرى للثانية ، وترى وجوب التخلص منهما معاً . وهكذا مضى القرن الخامس عشر فى مد وجزر فى بلاد الشمال الأفريقى .

ثم كان أن استقلت جهات عديدة فى أطراف ووسط المغرب العربى بنفسها، مكونة إمارات اقطاعية أو ما يشبه ملوك طوائف ، يظهرون كالفقاقيع فوق سطح الماء ثم يختفون بسرعة (٨٣) كبنى هنتانه فى مراكش وبنى راشد فى شفشاون (٨٤) وكاستقلال واحات فكيك وقبائل الوار مسنيس ، وخضوع بلاد القبائل لسلطان كوكو ، وسيطرة حاكم قسنطينه الحفصى على المنطقة الراقعة بين عنابه والقل بعد أن تخلص من السيطرة الحفصية ، وصيروره المزاب والحضنة اقطاعاً لعرب الدوادة وغيرها(٨٥) ، فلا تكاد تعرف حدود لدولة ولا تخوم مرسومة لإمارة . وذاق الشعب المغربى من جراء هذا أهوالاً وخطوباً ، مع أن المغرب كان عندئذ عامراً بالرجال ، مزداناً فى كل جهاته بالعلماء والأدباء ، الذين لم ينضب معينهم رغم تلك الأوضاع ، وكان جديراً به أن يؤلف وحدة سياسية واقتصادية واجتماعية تجعل منه دولة مرهوبة الجانب قوية السلطان كالدول الإسلامية السابقة، ولعل ذلك كان هدف الحفصيين والمرينيين من وراء الحروب والفتن المتواصلة ، لكن لم تكن لأى من الدولتين المقدرة ولا الإستعداد لتحقيق هذا الهدف النبيل(٨٦).

وقد حاول أبو فارس عزوز الحفصى تحقيق الوحدة بين المغرب ، وصار قاب قوسين أو أدنى فى تحقيقها ، وذلك حينما اجتاحت قواته سنة ٨٢٨ هـ / ١٤٢٤م مملكة الجزائر ، وانتصر على تلمسان وخرج سلطانها أبو مالك هارباً إلى

الجبال ، ثم توجه أبو فارس نحو فاس بعد أن نصب عل تلمسان الأمير محمد بن الحمرة، ثم حدثت تطورات اضطرت أبو فارس إلى العودة إلى تونس ، إذ جاءته بيعة مرين وصاحب الأندلس ، وبذلك صار المغرب الإسلامى بتمامه تحت رعاية السلطان أبى فارس الحفصى .

ولكن المغرب لم يستقر على تلك الوحدة مدة طويلة إذ قام أبو يحيى أحد أمراء البيت الزيانى بالاستيلاء على وهران سنة ٨٤٠ / ١٤٣٧ كما خرج أبو عبدا لله محمد الرابع (ابن الحمرة) فى سنة ٨٣٣ هـ / ١٤٤٠ م وضم تلمسان ، ولكن ما كاد ينعم بالملك حتى فاجأه السلطان الحفصى فأسره ، ونصب مكانه عمه أبا العباس أحمد العاقل ، وهكذا مضت تلك الحقبة بين تناحر المتنافسين ، وتقاتل الدولتين المتجاورتين ، بل ظل التناحر بين الأسر المالكة نفسها ، فلم يستتب الوضع فى أنحاء الجزائر وأخذ الحفصيون كغيرهم من ملوك المغرب الأقصى يترقبون نشوب الخلاف بين أمراء البيت الزيانى ليتوسعوا ، ويحققوا هدفهم وهو الإستيلاء على هذه المملكة (بنو زيان) وضمها إلى حكمهم : ثم جاء الدور للحفصيين ، إذ خرج السلطان أبو عمر عثمان الحفصى من تونس سنة ٨٦٦ هـ / ١٤٦٣ م متجهاً نحو عاصمة المغرب الأوسط (تلمسان) فأخضع قلعة جليمة وأرض بنى راشد . وهنالك جاءته وفود عربية من سويد وبنى يعقوب وبنى عامر والدواودة وأعيان عبد الواد ، وكلهم ناقم على السلطان على الزيانى راغب فى الحفصيين ، فأحسن أبو عمرو استقبالهم وعين ولاته عليهم ، وعقد الصلح مع ملك تلمسان(٨٧) وهكذا ذهبت دولة بنى زيان التلمسانية ضحية محاولات الحفصيين والمدنيين وأطماعهم ، فكل من الجانبين كان يرى ضرورة إنهائها والإستيلاء على أرضها تحقيقاً لمصالحه فاستنزف ذلك قواها المادية وعجل باضمحلالها وسقوطها ، كما شجع الأمم النصرانية على التطاول فى نشاطها على سواحل الشمال الأفريقى ، وأخذت تطرق أبواب المغرب بشدة منذ بداية القرن

الخامس عشر ، وذلك حين هاجمت تدلس (٨٨) ، وعنابة (٨٩) أساطيل بلنسية وميورقة معاً كما تطاول صاحب قشتاله ، الذى كانت تراوده نزعة صليبية مفرطة على تطوان(٩٠) فخربها وقتل نصف سكانها وساق الباقين من رجالها ونسائها أسرى وسبايا ، فى حين كان ملك المغرب المرينى يحاصر مملكة تلمسان من أجل ارغامها على التبعية(٩١) مما شجع الدول النصرانية على النزول فى الشمال الأفريقى فى ظل غياب الدولة الإسلامية التى تستطيع حماية الشواطىء من الأعمال الوحشية النصرانية ، وعدم وجود الغيره من قبل الحكام المسلمين الذين كان لا يهمهم سوى تحقيق مصالحهم ورغباتهم على حساب المسلمين ، والا بماذا نفسر حصار ملك المغرب لتلمسان فى الوقت الذى تدك مدن تطوان وتدلس وعنابة وتنتهك أعراض المسلمين ولا يحرك ذلك ساكناً لحاكم المغرب ؟ ولعل هذا يفسر حالة المغرب فى مطلع العصر الحديث : تقهقر وفوضى وانحلال ، فى الوقت الذي يخرج العالم الأوربى من عصوره الوسطى المظلمة ، لينطلق نحو العصر الحديث ، فانطلقت الأفكار واتجهت العقول نحو التحرر وبزغ عصر النهضة فى أوروبا .

* * *

أما عن أسبانيا فقد كان لطغيان الأسبان بالأندلس واعتداءاتهم المتكررة على المسلمين تأثير عظيم على جمعهم ، فأخذوا يلجئون إلى الشمال الأفريقى ابتداء من سنة ٨٥٦ هـ / ١٤٥٢ م ، حيث نزل أكثرهم بالجزائر ، فلحقهم الأسبان بمراكبهم ، لتبدأ الحروب البحرية بين الجزائريين والنصارى وكان أن اتحد الأندلسيون مع أهل الجزائر على مناوأة العمارة النصرانية فى البحر المتوسط ، ولكن بونه (عنابة) سقطت بيد الأسبان سنة ٨٦٧ هـ / ١٤٦٢ م ، ثم تبعها غيرها من مدن السواحل الغربية(٩٢) .

وقد توقفت حركة الاسترداد فى قشتالة تقريباً خلال الاضطرابات الأهلية فى القرن الخامس عشر ، إلا أن سقوط القسطنطينية فى يد العثمانين سنة ١٤٥٣

أشعل حماس الدول النصرانية فاستجاب ملك قشتالة إلى نداء البابا نحو حرب صليبية جديدة باستئناف حركة الاسترداد فتوغلت ست حملات عسكرية ضخمة داخل مملكة غرناطة إلا أنها لم تحقق أهدافها .

وكانت الحرب الصليبية ذريعة لملك قشتالة فى جباية الأموال من رعاياه وتحت اشراف البابا ، على أن الحماس الحقيقى للحرب الصليبية أصبح غير متأجج لدى البلاط الملكى ، فى حين كان الشعب القشتالى متحمسا ، فسار بأعداد كبيرة للمشاركة فى حرب صليبية ضد الدولة العثمانية .

ومن ناحية أخرى فإن فكرة الحرب الصليبية ظلت قائمة لدى فرديناند وايزابيلا على اختلاف أشكالها الدينية والوطنية والعاطفية مما أدى إلى استئناف الهجمات القوية على غرناطة فلاقى هذا العمل تأييد شعبى ، وتجمع أهل البلد وساروا خلف حكامهم للقيام بانجاز بطولى برفع مكانة أسبانيا فى العالم النصرانى(٩٣) والتى كانت تنافسها عليها حكومة البرتغال .

وقد بدأ الهجوم الأسبانى على مملكة غرناطة عام ٨٨٧ هـ / ١٤٨٢ م ، فأخذت المدن تتساقط فى يد الأسبان ، ولم يبق منها سوى غرناطة وتميزت بأرضها الجبلية التى حدت من حركة الفرسان ، كما كانت حرب حصار ، سيطر فيها سلاح المشاة والمدفعية ، وكان سلاح المشاة يتكون من الجنود المرتزقة والمتطوعين الوافدين من أنحاء أوروبا ، كما أن مجموعة منهم كانت من الحرس الوطنى فى قشتالة المعروف عنهم قوة التحمل على المناخ وشدة مراسهم فى المعارك الأوربية والعالم الجديد ، وفى حرب غرناطة قاموا بحرب العصابات وذلك بالهجوم المفاجىء تارة وبالمناشات تارة أخرى(٩٤) .

وكان أن تغلبت العزيمة الأسبانية والقوة النصرانية على عوامل الانهيار والانقسام الذى ساد المسلمين فى شمال أفريقية وتوالت النكبات على المسلمين مدة

عشر سنوات بدون انقطاع ، فأخذت مدنهم الواحدة بعد الأخرى ، كما فنى رجالهم قتلاً وأسراً وقاتل المسلمون عن كل مدينة وبلدة وحصن وبرج بل عن كل صخرة ، كأنهم ينتظرون الفتح . ولم يجدوا مكاناً تثبت فيه اقدامهم ولاجداراً يمكنهم رمى السهام من ورائه إلا واعتصموا به ، ينازعون العدو وطنهم المحبوب حتى لم يبق لهم إلا عاصمتهم مقطوعاً عنها كل مدد ، غير طامعة فى أدنى غوث تنزل على أسوارها ، أمة بقضها وقضيضها ولم يزالوا يدافعون عنها ، كأنهم يترقبون معجزة يرسلها الله فى حقهم .

وضاق عليهم الحصار ، وبنى فرديناند وايزابيلا مدينة كاملة تجاه مدينتهم ، إشعاراً لهم بأنهم لن يرجعوا عنها أبداً ، قرر الشبان والمجاهدون تحت زعامة موسى أبى الغسان الثبات والموت إلى آخر رجل ، تحت سنابك الخيل . إذ لم يبق هنالك إلا أحد أمرين : الإستسلام أو الهلاك المحقق فى أنقاذ الشرف .

لكن أهل غرناطة خافوا فضيحة النساء وانتهاك حرمة البنات وتشتيت الشمل وفقد المال ، فقرروا الإستسلام بعد مقاومة بطولية ، ورضوا أن يكونوا من رعايا الدولة الأسبانية مقابل اعترافها بحرية دينهم ، واحترام عقائدهم والمحافظة على أموالهم وممتلكاتهم ، وحرية من أراد منهم الإنتقال بماله وأهله إلى بلاد المغرب العربى . وهكذا استسلمت آخر دويلة أندلسية وخرج ملكها أبو عبد الله يبكى وينوح وأمه عائشة الحرة تقول له : أبك مثل النساء ملكاً لم تدافع عنه دفاع الرجال(٩٥) .

وفى اليوم الثانى من شهر يناير عام ١٤٩٢ صدر أمر الملكان الكاثوليكيان باحراق مليون وخمسمائة ألف كتاب تشمل وثائق ومخطوطات تتعلق بالإسلام لكى يسهل على الأسبان إبعاد المسلمين عن مصادر عقيدتهم الإسلامية ويسهل القضاء عليهم(٩٦) .

وعهد الملكان الكاثوليكيان إلى حكومة جديدة بمعاملة المسلمين معاملة حسنة وإدخالهم فى النصرانية بالتدريج ، مع بذل قصارى جهدهم فى تحقيق ذلك، وترغيبهم بشتى الوسائل ، فأخذت الحكومة تبنى المنشأت الخيرية ، وتحث رجال الدين على تعلم اللغة العربية ليمكن نشر المسيحية بين المسلمين (٩٧) وكانت مهمة الحكومة أيضاً ضمان الأمن العام ، ودعم سيطرة الملكين على المملكة الإسلامية المنهارة .

وكانت هناك مهمة فى غاية الصعوبة تتعلق بمنطقة البوشرات الجبلية التى يقطنها بعض المسلمين الفارين . وليتغلبوا عليها تم تعيين قيادة ملكية فى عام ٨٩٩هـ / ١٤٩٣ م نظراً لاحتمال قيام حركة عصيان لمجاورتها للشمال الأفريقى وقد بذل الملكان سعيهم فى حث الشخصيات الأندلسية وقياداتها على مغادرة شبه الجزيرة الإيبيرية وتقديم المساعدات لمن يرغب فى الهجرة واستتر السلام يعم أنحاء غرناطة طالما ارتضى الأندلسيون الحكومة النصرانية الجديدة ، وطالما الحرية الدينية قائمة ، والأعمال الخيرية مستمرة(٩٨) ومع ذلك ظلت أسبانيا خاصة والنصرانية عامة تتخوفان الخطر الإسلامى على الرغم من تشييد أبراج المراقبة على إمتداد السواحل الأندلسية ، وترغيب العلماء والشخصيات الإسلامية فى الهجرة من الأراضى الأسبانية ، ولعل مصدر القلق كان الإسلام نظراً لسماحة تعاليمه وسمو أحكامه .

وقد خشى فردناند فى البداية عواقب التسرع فى تنفيذ سياسة إجبار المسلمين على التنصر ، لأن الأمن لم يكن قد توطد فى المناطق المستردة حديثاً ، ولأن المسلمين لم ينزع سلاحهم ، وقد يؤدى الضغط إلى الثورة ، فتعود الحرب كما كانت ، لخوف الملك الأسبانى من إقتحام الإسلام أراضيه ، استجاب لرأى الكنيسة ، واستدعى الكردنيال خمنيس إلى غرناطة ليعمل على تحقيق مهمة تنصير المسلمين ، فوفد عليها فى شهر ذو الحجة ١٢١٤ هـ / يوليه ١٤٩٩ م ، ودعا

أسقفها الدون فيرا ، إلى إتخاذ وسائل فعالة لتنصير المسلمين ، وأمر بجمع فقهاء المدينة ودعاهم إلى اعتناق النصرانية ، وأغدق عليهم الهدايا والمال(٩٩) ، كما دعاهم للمناظرة . وكانت المناظرات تستمر طوال اليوم ثم تستأنف ، وأخذ الفقهاء يقارعون الحجة بالحجة ، ويفندون رأيه جملة وتفصيلاً . وطال النقاش والمناظرات ، ومل الفقهاء تلك الجلسات ، وأيقنوا أن كبير أساقفة قشتالة يمكر بمسلمى غرناطة ولن يكل أو يمل حتى يحقق هدفه ، وأمام هذه المقاومة من الفقهاء وحثهم على محاربة دعوة خمنيس ، أمر خمنيس بإحضار ثلاثة آلاف أندلسى ، وجمعهم فى الكنيسة التى خصصها لشن حملته ، وراح يدعوهم إلى التنصر فيضر بهم تارة ويرهبهم أخرى فتصدى له فقهاء غرناطة وسفهوا آراءه . ووصل الأمر ذروته حين بدء خمنيس فى إحراق كل ما تقع عليه أيدى عماله من نسخ القرآن الكريم . وكان خمنيس يرسل بعض عماله إلى البيازين(١٠٠) للتعرف على أخبار أهلها ، حتى اشتبك ثلاثة منهم مع بعض أهل غرناطة ، قتل على إثرها أثنان من العمال ، وكانت هذه نقطة التحول . إذ أخذ زعماء غرناطة وعلماؤها بالبيازين يحثون الناس على حمل السلاح وإعلان الإنتفاضة دفاعاً عن وجودهم ودينهم والتصدى لممارسات خمنيس بعد استفحال خطره ومضيه فى مسلكه دون رادع(١٠١) .

ثم كان أن قرر مجلس الدولة الأسبانى أن المسلمين صاروا خطراً على الدين والدولة ، ولاسيما بعد ما تبين جنوحهم إلى الثورة ومحاولتهم الإتصال بإخوانهم فى المغرب ومصر والقسطنطينية ، وقضى بوجوب اعتناق المسلمين للنصرانية ونفى المخالفين منهم من الأراضى الأسبانية ووقع هذا القرار على المسلمين وقع الصاعقة، وسرعان ما دبت فيهم الحمية فأعلنوا الثورة فى معظم نواحى غرناطة وفى بعض البيازين وفى البشرات ، واشتد الهياج فى بلفيق وفى أندرش(١٠٢) حيث نسف حاكم البلدة مسجدها بالبارود ، وفى نيخار وجونجار(١٠٣) وغيرها، وعزم المسلمون على الموت فى سبيل دينهم وحريتهم ، ولكنهم كانوا

عزلاً ، بينما جنود النصارى يحملون أسلحة ، مزقوا بها المسلمين بلا رأفة ، وأكثروا بينهم القتل وسبوا نساءهم ، وقضوا بالموت على مناطق بأسرها ، ماعدا الأطفال الذين دون الحادية عشرة فقد حولوا إلى نصارى ، ولجأت الحكومة بعد إخماد الإضطرابات فى غرناطة والبيازين إلى أساليب الرفق ، فبعثت بالعمال والقسس إلى مختلف الأنحاء ، ولم يدخر هؤلاء وسعاً فى إجتذاب المسلمين بالوعيد والوعود .

ونشط فرديناند فى إخماد الثورات فى الوقت الذى غدا التنصير أمراً لا مفر منه ، وأضحى فرديناند يعتبر نفسه فى حل من عهوده المقطوعة للمسلمين ، فتقدم المدعى العام با قتراح يرى فيه وجوب إنشاء ديوان للتحقيق فى غرناطة ، يساعد فى مطاردة الزيغ بوسائله الفعالة ، إلا أن فرديناند وأيزابيلا عارضا الفكرة .

وكانت الكلمة الفاصلة للكنيسة دائماً ، ففى ٢١ يوليه سنة ١٥٠١ م أصدر فرديناند وإيزابيلا أمراً ملكياً مفاده « أنه لما كان الرب قد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة ، فإنه يحظر وجود المسلمين فيها ، فإذا كان بها بعضهم فإنه يحظر عليهم أن يتصلوا بغيرهم ، خوفاً من أن يتأخر تنصيرهم ، أو بأولئك الذين نصروا لئلا تفسد عقيدتهم ، ويعاقب المخالفون بالموت أو مصادرة الأموال».

ولم تصمد ثورة المسلمين إلا فى المنطقة الجبلية (جبال الحمراء) الواقعة بين أكام فليا لونجا وسيرا فيرسليا بجوار مدينة رفدة حيث احتشدت بعض البطون المغربية ، وحيث استطاع الثوار أن يقتحموا مقر سكان الجبال الأصليين ويفتكوا بعمال الحكومة وجندها ، مما دعى فرديناند إلى تسيير حملة قوية إلى المنطقة الجبلية بقيادة الفونسو دى آجيلاد دوق قرطبة فى مارس ١٥٠١ م هزم فيها النصارى ، وقتل منهم أعداد كبيرة وفى مقدمتهم قائد الحملة ، وكان لهذه الهزيمة التى نزلت بالأسبان أعمق الأثر فى البلاط الأسبانى ، إذ هرع فرديناند إلى غرناطة ورأى بالرغم من سخطه أن يجنح إلى اللين والمسالمة ، فأعلن العفو عن الثوار ، شرط أن

يعتنقوا النصرانية خلال ثلاثة أشهر أو يغادروا أسبانيا تاركين أملاكهم للدولة ، فآثر معظمهم النفى والجواز إلى أفريقيا ، وهاجرت منهم جموع كبيرة إلى فاس ووهران وبجاية وتونس وطرابلس وغيرها ، وقدمت الحكومة الأسبانية السفن اللازمة لنقلهم مغتبطة إذ كانوا أشد العناصر مراسا وأكثرها نزوعاً إلى الثورة(١٠٤) .

والواقع إن خطر الثورة بلغ ذروته بعد أن تلقى الثوار الأندلسيين الدعم الكافى والتحريض على القتال من إخوانهم فى شمال أفريقيا ، فشعرت الحكومة الأسبانية على أثره بحافز جديد لمشروع طويل الأجل يهدف إلى استمرار الحرب الصليبية ، وذلك بنقل الحرب إلى أفريقية ، واعتبرت الحكومة الأسبانية الحرب هناك حلقة طبيعية للسيطرة على غرناطة ، خاصة وأن الوقت أصبح مناسباً لإنجاز المشروع لما تشهده بلدان المغرب من إنحلال أثر الخلافات بين الحكومات الجزائرية والمغرب وتونس ، وكذلك بين سكان الجبال وسكان السهول وبين السكان الأصليين والمهاجرين الأندلسيين ، وفى الواقع كانت أراضى شمال أفريقيا أرضاً غير مناسبة للأسبان لخوض تلك الحروب ، ولكن سكانها المسلمين كانوا غير ملمين بوسائل قشتالة الحربية ، فضلاً على إستغلال الأسبان الخلافات الداخلية والعديد من الإمكانيات .

وكان البابا الكسندر السادس قد بارك الحرب الصليبية الأفريقية منذ فترة طويلة فى عام ٩٠٠ هـ / ١٤٩٤ م وسمح باستمرار جباية الضرائب لتغطية تكاليف هذه الحرب ، والتى تأجلت مدة عشر سنوات ، حاربت خلالها الجيوش الأسبانية فى إيطاليا ، فأهملت الجبهة الجديدة ضد الإسلام فى أفريقية ولم تشهد نشاطاً سوى على ميناء مليلة سنة ٩٠٣ هـ / ١٤٩٧م(١٠٥) ، بقيادة دوق مدينة شدونة Sidonia ، ومنها أخذ الأسبان يتتبعون فى قلق تفاقم الصراع بين بنى وطاس والأشراف(١٠٦) .

وتيقنت قشتالة الخطر الداهم عبر بوابة شمال أفريقيا ، مما أشعل حماس الشعب الأسبانى الدينى ، فأيقظ ذلك الشعور بضرورة شن حرب صليبية ضد الإسلام ، وساند ذلك الشعور خمنيس والملكة ، إلا أنه لم تتخذ إجراءات عملية حتى وفاة الملكة عام ٩١٠ هـ / ١٥٠٤ م ، إذ نفذ خمنيس وصية الملكة الأخيرة ، وهى أن يبذل الملك جهوده لفتح أفريقيا وحرب المسلمين ، فأجتاح حماس خمنيس كل العقبات ، وأعد حملة فى مالقة Malaga أبحرت إلى شمال أفريقيا فى خريف عام ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م (١٠٧) بقيادة دون رايمون دى قرطبة ، فوصل الأسطول بعد أن اعترضته رياح معاكسة ، وكان التأخير مفيداً للأسبان ، إذ انسحب المحاربون بعد أن ملوا الإنتظار وقلت المؤن فسهل ذلك مهمة المهاجمين ، الذين حاصروا المرسى الكبير ، عندئذ اجتمع أهل المدينة وأصحاب المشورة الذين رأوا عدم جدوى المقاومة ، لكثافة الجنود الأسبان وقرروا عقد إتفاقية مع الأسبان تضمن لهم السلامة وحرية الإنسحاب من المدينة ، وبذلك تم الإستسلام(١٠٨).

وكان أن فتح الأسبان سوقاً تجارياً بجانب مدينة المرسى الكبير ، وذلك لتزويد الحامية بما يلزمها من المواد الغذائية ، مقابل ما لدى الأسبان من ذهب وفضة فنشأ تبادل تجارى مع المسلمين فى الشمال الأفريقى .

وأراد القائد الأسبانى على مدينة المرسى الكبير ، القيام بمناورة حربية حول قرية مسرغين المعروفة بثراء وغنى أهلها ، فغادر المدينة فى ٢١ شعبان ٩١٣ هـ / ٦ يناير ١٥٠٧ م ، ومعه كامل الحامية الأسبانية ، ثم هاجم السكان وقتل القادرين على حمل السلاح وساق البقية أسرى ، إلا أن رجال القرى الأخرى عندما علموا بذلك ، اندفعوا لإنقاذ إخوانهم ، كما بادرت مدينة وهران حيث قيادة المعقل الإسلامى بإرسال قوة ، فتجمعت تلك القوى وأنقذوا أهالى مسرغين من الأسر .

وتطايرت أنباء انتصار مسرغين على الأسبان إلى مختلف الجهات المغربية ، وفهم العامة أبعادها ، فاستعدوا للجهاد الأكبر ، إلا أنه وجدت هنالك فئة من

المنافقين رأت الإفادة من هذا الوضع الجديد والإستعانة بالأسبان ضد إخوتهم كما استغل الحاكم الأسبانى للمرسى الكبير الفرصة فبذل جهوداً بواسطة جماعة اصطفاهم من الأعراب المحيطين بالمرسى الكبير والملقبين بالمغطسين(١٠٩) ببث جذور الفتنة والشقاق بين المسلمين ، وترغيبهم ببذل الإعانات والمساعدات ، وذلك تمهيداً لاحتلال وهران . ونجحت مساعى الحاكم الأسبانى إذ أعلن يحيى الثابتى الثورة ، وتغلب على مدينة تنس بمساعدة الأسبان وحمايتهم ، وبذلك أنغمست الجزائر فى الفتن الداخلية التى كان يبثها الأسبان ، فجهز أبو حمو الثالث جيشه لقتال ابن أخيه بتنس واشتعلت نيران الحرب الأهلية وكانت المعارك الأولى نصراً للسلطان أبو حمو على ابن أخيه لولا رفض جيش تلمسان الاستمرا فى القتال، فثبت يحيى ابن عم السلطان فى تنس ، وعادت جموع أبى حمو إلى تلمسان(١١٠) ، وهكذا مضت القوات الأسبانية بقيادة حاكمها تمهد لاحتلال النقطة التالية وهى وهران .

وكانت وهران مهبط التجار الأوروبيين وبالذات القطلونيين ، والجنويين ، وكان سكان وهران أعداء لملك تلمسان ، فلم يقبلوا بولاته ، ماعدا أميناً للمال ، وقابضاً لدخل الميناء وكان التجار يجهزون سفناً شراعية وأخرى مسلحة ، يهاجمون بها سواحل قطلونية وجزر يابسة ومنورقة وميورقة ، حتى صارت المدينة تزخر بالأسرى المسيحيين(١١١) مما دفع الحكومة الأسبانية بالإسراع فى أحتلال المدينة ، إذ أرسل فردناند اسطولاً كبيراً عام ٩١٥ هـ / ١٥٠٩ إلى وهران لمحاربة أهلها وتخليص المسيحيين ، إلا أن الأسطول تلقى هزيمة بسبب سوء التنظيم ، فأعاد الملك المحاولة فجمع بمساعدة بعض الأساقفة والكردينال خمنيس أسطولاً أضخم من الأول تمكن من الإستيلاء على المدينة ؛ إذ خرج السكان يقاتلون بغير نظام وتركوا المدينة خالية ، فانتهز الأسبان الفرصة ودخلوا المدينة يوم الجمعة ٢٨ محرم سنة ٩١٥ هـ / مايو ١٥٠٩م(١١٢) .

كانت أسبانيا تسير فى معاركها الأفريقية حسب خطة مرسومة وبرنامج محكم ، فما كادت تثبت أقدامها فى الجناح المغربى من الجزائر حتى اتجهت إلى الجناح الشرقى وأخذت تستعد لإنزال الضربة القاصمة بمدينة بجاية ، التى كانت مركز أشعاع حضارى وعلمى ، رغم ما شهدته من الفتن والأطماع حول العرش ولم تغب هذه الأمور عن أسبانيا فارسلت أسطولاً بقيادة بدور نافارو فى ٣٠ نوفمبر ١٥٠٩ م ، مكوناً من عشرين سفينة على متنها عشرة آلاف رجل من صفوة الجيش فاستطاعوا أن يحتلوا المدينة على الرغم من دفاع المجاهدين الكبير ، وما كادت أنباء النصر فى بجاية تبلغ مسامع أسبانيا والبلاد النصرانية ، حتى أقيمت الإحتفالات والصلوات ، وأعلنت الأعياد ، أما فى البلاد الإسلامية فقد أحدثت هذه النكبة أسى عميقاً وساد القسم الشرقى من البلاد الهلع ، فبادر السلطان الحفصى بإسترضاء الملك الأسبانى أسوة بملك تلمسان بعد نكبة وهران ، كما قرر سكان الجزائر وعلى رأسهم الشيخ سالم التومى ، وجوب استرضاء الأسبان وعقد إتفاق معهم يصون حياتهم ، ويضمن بقاءهم . واتفق الطرفان الجزائرى والأسبانى على معاهدة تم بموجبها تعهد الجزائريين بإطلاق سراح الأسرى وأن لاتتعرض للسفن النصرانية ، وأن يدفع الجزائريون للأسبان مبلغاً مالياً اعترافاً بالتبعية(١١٣) .

وقد ازدادت الخلافات حدة بين فرديناند وخمنيس الذى كان يرى ضرورة التوغل فى أفريقية حتى مشارف الصحراء الكبرى بدافع من روح صليبية ، بينما لم يهتم الملك اهتماماً كافياً بأفريقية ، بل أخذ فى الأعتبار الأول حماية إيطاليا من هجوم ارجوان ، فاكتفى باحتلال محدود لسواحل أفريقية، يكفى لحماية السواحل الأسبانية من الهجمات الإسلامية . واكتفى الجيش الأسبانى فى عهد فرديناند بالاستيلاء على بعض المواقع الإستراتيجية ، وإقامة معسكرات عليها تاركاً البلاد الداخلية للسكان المسلمين ، فدفعت أسبانيا نتيجة ذلك الثمن غالياً ، إذ استطاعت القوى الإسلامية القيام بأعمال جهادية بحرية ، انطلاقاً من القواعد الإسلامية المقامة على إمتداد الساحل (١١٤) .

وكان أن أمعن الملك الأسبانى فى الإهتمام بالجنـاح الشـرقى حيـث كـانت طرابلس أقوى مركز يمكن أن يتخذ لمواجهة الخطر العثمانى فـى البحـر المتوسـط ، لأنها أكبر مدينة فى الجنـاح الأفريقـى الشـرقى ، وأقـوى نقطـة للدفـاع عنـه مـن الهجوم من الشرق ، وأقرب نقطة لتمويل ونجدة الجيوش التى تغزو الشرق فى حالة شن هجوم نصرانى على الأراضى المقدسة .

وكانت طرابلس تمتاز بنصيب وافر من الثروة والرفاهية علاوة علـى موقعهـا الجغرافى الهام وهو مادفع الطامعين للإستيلاء عليهـا وعلـى بقيـة البـلاد الإسـلامية المجاورة لها والإستيلاء على ثرواتها فائدة أخرى وهى منع المسلمين من الإنتفاع بها فى تكوين الجيوش والأساطيل وتقوية القلاع التى قد تحول بينهم وبين احتلالها هى وسائر المدن الأخرى ، وبذلـك يصبح مركـز مالطـة بـل والشـمال الأفريقـى فـى خطر(١١٥) .

وكان أن انتهز الأسبان فرصة إستنجاد أحمـد الحفصـى بهـم ، وذلـك علـى والده الناصر إثر خلاف بينهما . وصـادف أن وفـد تجـار مـن الأسـبان كـانوا فـى طرابلس ، فلما عرفوا الحال السياسى أخذوا يغرون حكومتهـم بـاحتلال طرابلـس ويقللون من شأنها فى الدفاع عن نفسها ، ويبالغون فـى وصـف ثروتهـا الهائلـة ، فشجع ذلك الملك الأسبانى على التعجل بإحتلالها ، وقد جهز مائه وعشرين قطعة بحرية ، وانضم إليها سفن أخرى من مالطة حملت على متنهـا قرابـة عشـرين ألـف جنديا من الأسبان والطليان . وعندما بلغت أخبار الغزو الأسبانى إلى الطرابلسـيين فر كثير منهم إلى المناطق المجاورة(١١٦) وكان الملك الأسبانى قد بعث بخطاب إلى قائده الكونت بدورنافارو يوضح فيه خطة الحكومة الأسـبانية تجـاه أملاكهـا علـى ساحل أفريقية ويحثه على ضرورة الإستيلاء على طرابلس ، وقد جـاء فـى الرسالة مايلى : (مونزون فى مايو سنة ١٥١٠ م) .

« إلى الكونت دون بييتر دى نافارا ، القائد العام بجيشنا ومستشارنا :

لقد تلقيت رسائلكم الثلاثة المؤرخة فى ٣ مايو ، والتى وجهتموهـا إلى مـن بلنسيه ، وذلك الخطاب المؤرخ فى الخامس مـن نفـس الشـهر ، والـذى حمله إلى حارس بلاطى (ميجويل كابريرا (Miguel Calbrea ولقد أصـدرت أوامـرى فـى هذه الساعة بأن يطلب من (ألونزو سانشـيز Alonzo Sanches) كتابيـاً بـالعمل فورا على طحن ألف كيس من القمح وفى نفس الوقـت فطـائر البشـماط المصنعـة من بعض هذا الدقيق ، وهى مؤنة تكفى ثمانية آلاف رجل لمدى خمسة عشـر يومـاً على الأقل ، ونظرًا لنقص الطعـام فـى بلنسـيه حاليـاً ، فـإننى قـد كـاتبت كذلـك (فارقاس – Vargas) خازن مدينة مالقـة وطلبـت منـه علـى الخصـوص أن يبعـث إليكم حال تسلمه لمكتوبى ، كل المـؤن التـى فـى إمكانـه الحصـول عليهـا ، حتـى تتزود بها فى أسرع وقت ولكى تتمكنوا من الرحيل إلى طرابلس . كمـا أننـى قـد أمرت نفس الخـازن بـأن يبعـث إليكـم عشـرة آلاف (دوكـات) وبمشـيئة الـرب سيتمكن الأسطول عند وصوله إلى صقلية من إستكمال تموينـاتـه ، ذلـك أن نـائب ملك هذه المملكة قد أخبرنى كتابياً بأن كل شىء جاهز وأعتقد – كما سبق لكـم وأن ذكرتم لى فى خطاباتكم مراراً – أننا إذا ماأردنا أن نحـافظ علـى وجودنـا فـى أفريقية فإنه يتحتم علينا أن نحتل مدن وهران وبجاية وطرابلس ، وفى حالة احتلالنـا هذه الأخيرة يتوجب علينا أن نعمرها برمتها بالنصـارى . وإلا فـإن المغاربـة الذيـن يسودون بقية مناطق البلاد(١١٧) .... » .

أقترب الأسطول الأسبانى من طرابلس ، ورسا فى مينائها ليلة الثـامن عشـر من ربيع الآخر سنة ٩١٦ هـ الخامس والعشرين من يوليـو سـنة ١٥١٠م ، وسـهر بيدور نافارو على ترتيب جيشه واصدار التعليمات ، وفى اليوم التـالى بـدأ الهجـوم إذ أطلقت المدفعية نيرانها واستسلمت المدينـة فـى ذلـك اليـوم(١١٨) حيـث أبلـغ القائد الأسبانى بيدور نافارو ملك صقلية بخطاب مرسل من طرابلس فى ٢٩ يوليه سنة ١٥١٠ ، بأن العمليات الحربية كانت عنيفة ، إلا أنه هنأ نفسه بـالنصر الـذى تم على يديه(١١٩) .

وقد ابتهجت أوروبا بسقوط طرابلس فى أيدى الأسبان ، وأقام نائب البابا احتفالات بسقوط هذه المدينة العربية الإسلامية فى أيدى النصارى ، كما استاء المسلمون لهذا الإحتلال ، وأرسل رئيس منظمة فرسان يوحنا إلى فرديناند ملك أسبانيا يهنئة بالنصر ويرجوه أن يتابع حملاته فى أفريقية(١٢٠) .

وكان أن طرد نافارو جميع الطرابلسيين حسب التعليمات الملكية السابقة من مدينتهم ، وهدمت المنازل والمبانى العامة ، ثم استعملت المواد المأخوذة من تلك الخرائب لبناء أسوار جديدة ، على نمط التحصينات الأوروبية ، وبعد أن فرغ نافارو من رفع راية الملك الكاثوليكى على طرابلس ، وتقبل يمين الولاء نيابة عن فرديناند ، عهد بقيادة المدينة إلى مساعده (دون خايمى بيدرو ريكيزنس (Don Jayme Pedro Reguesens) وترك له قوات ومدفعية كافية للإحتفاظ بسيطرته عليها(١٢١) .

وقد أراد الكونت بيدرونافارو أن يجعل من طرابلس نقطة انطلاق لغزو بقية الشمال الأفريقى وقد بدأ بمحاولة بسط نفوذ بلاده على جزيره جربة التى لا تبعد عن طرابلس إلا بخمسة وثلاثين فرسخاً ، وظن أن العملية سهلة ، فتوجه إلى مضيق القنطرة(١٢٢) بأسطول يتكون من ثلاث عشرة وحدة بحرية ، لكن فظائع الأسبان فى طرابلس جعلت الأهالى على جانب كبير من اليقظة والاستنفار ، ولما اقتربت السفن من الساحل أطلقوا عليها النار ، فمات أحد الموفدين إليهم ، وأيقن نافارو بعزم الأهالى على الدفاع ، فعدل عن الإشتباك فى حرب مع جزيرة جربه وعاد إلى طرابلس مرجئاً عملية الغزو إلى وقت آخر مناسب(١٢٣) وكان ذلك فى ٢٥ جمادى الأولى ٩١٦ هـ / ٣٠ أغسطس ١٥١٠ م فزحف مرة ثانية ومعه اثنا عشر ألف جاؤا من طرابلس وثلاثة آلاف من بجاية ، فهزم بيدرو نافارو، وبلغت خسائره ألفاً وخمسمائة قتيل ، فاضطر إلى التراجع (١٢٤).

والواقع أن القيادة الأسبانية أرادت أن تحتل موقعاً استراتيجياً على الساحل الشرقى التونسى مهما كلفها الأمر(١٢٥) كما رغب قائدها بيدرو نافارو فى أن يحقق ذلك الهدف قبل عودته إلى أسبانيا ، فضلاً عن أن يجوب بحار ساحل أفريقية الشمالية ، بحثاً عن فرصة للثأر من الهزيمة التى منيت بها الجيوش الأسبانية فى جربة وبعد أن ترك فى طرابلس القوات اللازمة للدفاع عنها ، اصطحب معه ستين سفينة وعلى متنها ثمانية آلاف محارب(١٢٦) ، واتجه نحو الشمال حيث جزائر قرقنة(١٢٧) ، فأنزل بها خمسمائه من جنودها المدربين ، لكن أهل قرقنة لم يكونوا دون أهل جربة استعداداً وتصميماً ، فما كاد يستقر المقام بالأسبان ، حتى كر عليهم أهل جزائر قرقنة ، فى هجوم قوى ، كان النصر فيها للمجاهدين ، إذ قضوا على كامل رجال الحملة الأسبانية وعاد بدرو نافارو إلى بجاية فى شهر فبراير سنة ١٥١١ م ، ثم عزله الأسبان(١٢٨) .

وبينما كان الملك الأسبانى غارقاً فى مشاكل السياسة الأوروبية ، مما أفقده جزءا من إهتمامه بالشئون الأفريقية كانت هنالك قوة جديدة قد أخذت تبرز فى شمالى أفريقية إذ ظهرت أعمال جهادية قام بها السكان ، والمهاجرون الأندلسيون ، ضد الأراضى الأسبانية والسفن النصرانية ، يتقدمهم الأخوان بربروسا - عروج وخير الدين - فبعد اشتغالهما بالجهاد البحرى فترة من الوقت ، أقام هذان المجاهدان ذائعا الصيت فى تونس بموافقة سلطانها الحفصى محمد ، ومن هناك أخذا ينشران الرعب والذعر على الشواطىء الأسبانية والإيطالية(١٢٩) مما أكسبهما ولاء وإخلاص غالبية المجاهدين المغاربة نتيجة لغاراتهم الناجحة ، كما استطاع الأخوان السيطرة على السواحل الجزائرية فترة زمنية(١٣٠) فاتجها بأنظارهما فى البداية إلى بجاية ، وهاجماها أولاً سنة ١٥١٢ ، لكن الأسبان أجلوهما عنها ، فاتجها إلى جزيرة جربة حيث ظلا فيها يستجمعان قواهما سنة ١٥١٣ ، وكان وجودهما بالجزيرة تهديداً للأسبان فى طرابلس ، غير أن العاصفة هبت من ناحية

أخرى ، وضمن عروج الأرخبيل الـذى كـان يحتلـه الجنويـون ، ثـم قـام الأخـوان بتوحيد جهودهم ، وعادوا إلى محاصرة بجاية حيث لم يكتب لهما النجاج(١٣١).

وقد رسا الأخوان عروج وخير الدين فى السواحل الجزائرية لقضـاء بعـض المهمات ، فاتصل بهما الأهالى ملتمسين منهمـا طـرد الأجـانب وانقـاذ ثغورهـم ، فلبى الأخـوان نداءهـم ، وكـان أول مـن شـرعوا فـى انقـاذه مدينـة جيجـل سـنة ٩٢٠هـ/ ١٥١٤ م(١٣٢) بمسـاعدة الأمـير ابـن القـاضى ، وألـزم عـروج أهـالى جيجل دفع زكاة العشر على الحبوب والثمار مما هو معمول به(١٣٣) .

وعندما علم الجزائريون بوفاة الملك الأسـبانى فرديناند ، انتهـزوا الفرصـة ، واستمسكوا بخير الدين لحماية بلادهم ، وبايعوه أميراً على البـلاد ، إلا أنـه سـخط عليهم لخيانة بعضهم واتصالهم بالأسبان فغادرهم سنة كاملة ، ثم ألحوا فى عودته، وأكدوا عليه قبول دعوتهم ، فأظهر امتناعاً ، ثـم لبـى دعوتهـم علـى أن يشـاركه أخوه عروج ، فسار فى البداية على مدينة شرشـال فضمهـا إليـه سـنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م ، وتقـدم بعدهـا إلى مدينـة الجزائـر ، فأنقذهـا مـن الأسـبان . إلا أن الدسائس أخذت تعمل عملها ، إذا انقلب ضده حاكم الجزائر ، وبيت له العـداوة مع الأسبان الموجودين فى الحصن فكأنهم بذلك حسدوه ، فنشط عـروج للإنتقـام من مشيخة مدينة الجزائر ، فقضى على حاكمها سنالم التومى ، ونصب نفسه أميراً على الجزائر ، وفى اثناء ذلك استنجد يحيى بن سـالم التومـى بالأسـبان فـى مدينـة وهران فجهز له هؤلاء أسطولا ضخماً ، لقى مقاومة عنيفـة مـن الأهـالى وعـروج ومهاجرى الأندلس ، فانهزم الأسبان وتفرقت جموعهـم ، وعندئـذ توجـس أهـالى الجزائر خيفة من تسلط الأتراك عليهم وخروج الأمر منهم ، فاهتموا بحاكم مدينـة تنس حميد بن العبيد مـن بنـى سـهل الـذى راسـل الأسـبان بـدوره يحرضهـم علـى المساعدة فى طرد الأتراك . وقد تعددت المراسلات حتى وصلت حملـة إلى الجزائـر فى ٣٠ سبتمبر ١٥١٦ م فأسرع عروج وصد الحملة بمساعدة الجالية الأندلسية ،

وقضى على حركة المتآمرين ، ثم أخذ عـروج فـى توسيع نطـاق حكمـه ، فضـم متيجة ومليانة ثم بلاد القبائل(١٣٤) ونصب عليها أخاه خير الدين وأقامه بدلس . ثـم هـاجم تنـس وفتحهـا فـى جمـادى الثانيـة ٩٢٣ هـ / ينـاير ١٥١٧ م ، وقتـل حاكمها الموالى للأسبان. ثم قسم إدارة البلاد مع أخيه خير الدين فـاضطلع هـو بغربهـا وجعل مقره مدينة الجزائر ، بينما حكم الجزء الشرقى خير الدين ومقره تدلس .

وقد استعمل عروج أخاه أسحاق على قلعة هوارة ، وأكد عليه فى تشـديد الضغط على الأسبان المقيمين بوهران وقطع الإمدادات عنهـم . وعندمـا جـاء أبـو حمو الثالث ومعه الأسبان ، ودارت المعارك هناك ، استطاع الأتراك أن يصدوا أبـو حمو والأسبان عن القلعة ، مما جعل أبا حمو يعيد محاولته ، فحاصر القلعة ، وضيـق عليها الخناق مدة ستة أشهر ثم رفع الحصار عنها .

ثـم انتقـل الميـدان بعـد ذلـك إلى تلمسـان حيـث طلـب أهلهـا مـن عـروج مساعدتهم ، بعد أن عاد إليها أبـو حمـو الثـالث وحلفـاؤه الأسبان ، فحاصروهـا ووقفوا فى وجه عروج وقاتلوه ، وقد استمر عـروج يخـوض غمـار الحـرب حتـى استشهد هو وجماعته معه فى الميدان سنة ٩٢٤ هـ / ١٥١٨ ، وأعـاد الأسبان أبـا حمو إلى عرشه المهزوز على أن يكون حليفهم ضـد الأتـراك ، ويدفـع لهـم سنوياً مبلغاً مالياً كبيراً(١٣٥).

* * *

يتضح مما سبق مدى التفكك السياسى فى الشـمال الأفريقـى ، والـذى بلـغ مداه فى أوائل القرن العاشر الهجرى / السادس عشـر الميـلادى ، علـى الرغـم مـن التهديد الخارجى ، فنجد مثلاً طرابلس تستعين بفاس ضد الحفصيين ، وفـى شـرق الجزائر يستمر النزاع بين الأمراء الحفصيين من جهة ، وتتنازع فيما بينهما إمـارات بربرية صغيرة فى بلاد القبائل من جهة أخرى ، كل ذلك سهل على الغزاة الأسبان

الإستيلاء على أهم الموانى الجزائرية الإستراتيجية ، علاوة على موانىء مراكش فيما بين ٩١٥ هـ / ٩٢١ هـ - ١٥١٥/١٥٠٩ م ، وذلك ضمن خطة مرسومة للسيطرة على المغرب العربى كله كخطوة أولى للوصول إلى الشرق حيث التجارة الشرقية والأماكن المقدسة .. وهيأ الله تعالى لشمال أفريقيا مجموعة من المجاهدين وعلى رأسهم عروج وخير الدين إثر اشتداد الصراع بين أتباع الإسلام وأتباع النصرانية ، والذى جذب عدداً كبيراً من البحارة المغامرين كانوا قد نشأوا فى خدمة أسطول الدولة العثمانية ، فاستطاعوا أن يحرروا مناطق عدة من الشمال الأفريقى ، لفترة قصيرة حتى أجلاهم الأسبان عنها بمساعدة بعض الحكام والأهالى، بعد أن رأوا فى المجاهدين الأتراك والأندلسيين أمماً دخيلة عليهم ، لذلك لم يتمكن عروج وخير الدين من تثبيت دعائم حكمهما وتوحيد المناطق لمواجهة العدو . وإن خاضا معارك جهادية مشرفة وأشعر أسبانيا أن فى الميدان رجالاً وأن وجودها فى الشمال الإفريقى سيكلفها الكثير من الدماء والأموال وأنه لن يطول مداه .

إن الإجراءات التى اتخذها عروج وخير الدين لمواجهة الخطر الأسبانى لم تكن ترقى إلى مستوى صد الهجمات الأسبانية ، ولا يمكن أن تصل لمستوى دولة حديثة قوية ، فالمجاهدون كانوا يواجهون امبراطورية لها خبرتها وإمكانياتها الحربية فضلا عن مساعدة بعض الأهالى المسلمين لها لذلك جاءت مواجهة المجاهدين لأسبانيا غير متكافئة ، أمام ذلك الوضع المتدهور اتضحت أهمية وجود دولة إسلامية قوية تستطيع توحيد المغرب للوقوف أمام القوى النصرانية ، وهذا ما حاول تحقيقه خير الدين بربروسا .

الهوامش

(١) محمد العروسى المطوى ، الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب . بيروت ، دار الغر الإسلامى ، ١٩٨٢ ، ص ٢٤١ .

(٢) نهر دويره يقع فى شمال غرب شبه الجزيرة الأيبيرية ويصب فى المحيط الأطلسى ، انظر محمد عبد الله عنان ، نهاية الأندلس ، ص٢٩ .

(٣) محمد عبد الله عنان ، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، القاهرة لجنة التأليف والنشر ، ١٩٦٦ ، ص ١٩-٢٠ .

(٤) نهر التاجه يقع فى شبه الجزيزة الأيبيرية ويصب فى المحيط الأطلسى وتقع عليه مدن طليطلة وأشبونه .

(٥) طليطلة يسميها الأسبان توليدو Toledo وتقع إلى الجنوب من مدينة مدريد على نهر تاجو وكانت عاصمة ملوك قرطبة ، انظر محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٦٦ .

(٦) دولة المرابطين عاشت فى بلاد المغرب من سنة ٤٧٩-٥٤٠ هـ / ١٠٨٦- ١١٤٥ م ، واستطاع يوسف بن تاشفين أن يضم بلاد الأندلس بعد معارك عديدة استغرقت عشرين عاماً فيما بين سنتى ٤٨٣ ، ٥٠٢ هـ / ١٠٩٠ - ١١٠٩م ، وأبرز تلك المعارك موقعة الزلاقة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م ، ودام حكم المرابطين بالأندلس زهاء خمسين عاماً ، واستطاعوا فيها أن يحافظوا على رقعة الأندلس .

انظر محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس ، القسم الأول ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٤ م ، ص ٢٥-٢٦ .

(٧) سرقسطة Saragosse مدينة فى أسبانيا وتسمى قديماً سيزاريا أو غسطا ، وكانت قاعدة بلاد أرغون تقع على نهر ابره ، انظر سرهنك ، حقائق الأخبار عن دول البحار ، جـ١ ، ص٢٥١ .

(٨) طرطوشة مدينة شرق بلنسيه وقرطبة قريبة من البحر . انظر اسمعيل سرهنك ، حقائق الأخبار عن دول البحار ، ص ٢٥٧ .

(٩) أشبونه وشنتره وشنترين ببلاد البرتغال من مقاطعة استرامادوره تقع على الشاطىء الأيمن من نهر تاجه ، انظر محمد عبد الله عنان ، نهاية الأندلس ، ص ٨٩ .

(١٠) باجه مدينة صغيرة فى جنوب بلاد البرتغال .

(١١) يابره مدينة تقع شمال باجه من بلاد البرتغال ، انظر محمدعبد الله عنان ، نهاية الأندلس ، ص ٨٩ .

(١٢) محمد عبد الله عنان ، المرجع السابق ، ص ٢٠ .

(١٣) محمد العروسى المطوى ، الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب ، ص ٢٤١ - ٢٤٣ .

(١٤) ميورقه جزيرة فى شرق الأندلس ، بالقرب منها جزيرة يقال لها منورقه ، انظر الإمام شهاب الدين أبى عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى البغدادى ، معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، جـ٥، ص ٢٤٦ .

(١٥) بياسة مدينة كبيرة بالأندلس من أقليم جيان بينها وبين أبده فرسخان ، انظر ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ٥ ، ص٥١٨ .

(١٦) قرطبة مدينة تقع ببلاد الأندلس على الشاطىء الأيمن من نهر الوادى الكبير قائمة على سفح جبال سيرامور ، انظر اسمعيل سرهنك ، حقائق الأخبار ، جـ١، ص ٢٦٢ .

(١٧) استجه كوره بالأندلس على نهر سنجل وأعمالها متصلة بقرطبة ، والمدور حصن بالقرب من قرطبة ، بلنسيه مدينة شرق قرطبة وتدمير ، انظرلا ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ١ ، ص ١٧٤ ، ٤٩٠ ، جـ٥ ، ص٧٧ .

(١٨) دانية مدينة من أعمال بلنسيه على ضفة البحر المتوسط شرقاً ، ياقوت الحموى ، نفس المرجع ، جـ٢ ، ص٤٣٤ . لقنت حصنان من أعمال لارده ، ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ٥ ، ص٢١ .

اريولة فى الشرق من ناحية تدمير . ياقوت الحموى ، نفس المرجع ، جـ ٥، ص١٦٧ .

قرطاجنه مدينة قريبة من الشى من أعمال تدمير، ياقوت الحموى، نفس المرجع، جـ٤، ص٣٢٣.

شاطبة مدينة فى شرق قرطبة ، ياقوت الحموى ، نفس المرجع ، جـ٣ ، ص٣٠٩ .

مرسيه مدينة فى أسبانيا تقع جنوب شرق مدريد ، انظر اسمعيل سرهنك ، نفس المرجع ، جـ١ ص ٢٦٠ .

جيان مدينة لها كورة واسعة بالأندلس تتصل بكورة البيرة شرق قرطبة ، انظر ياقوت الحموى ، نفس المرجع ، جـ٢ ، ص ١٩٥ .

اشبلية مدينة بأسبانيا على شاطىء الوادى القديم وهى المدينة الرابعة ، انظر اسمعيل سرهنك ، نفس المرجع ، جـ١ ، ص ٢٦٠ .

(١٩) بطليوس مدينة حصينة من أعمال ماردة غرب قرطبة ، ياقوت الحموى ، نفس المرجع ، جـ١ ،ص ٤٤٧ .

ماردة مدينة بأسبانيا ببلاد استرا ماوردة من أقليم بطليوس على الشاطىء الأيمن من راوى يانه ، انظر اسمعيل سرهنك ، نفس المرجع ، جـ١ ، ص٢٥١ .

شلب مدينة فى غرب الأندلس قاعدة ولاية اشكونية ، ياقوت الحموى ، نفس المرجع ، جـ٣ ، ص ٣٥٧ . شنتر به حصن يقع فى شرق قرطبة ، ياقوت الحموى ، نفس المرجع، جـ٣ ، ص ٣٦٧ .

لبلة قصبة كورة بالأندلس شرق اشكونية وغرب قرطبة ، ياقوت الحموى ، نفس المرجع، جـ٥ ، ص١٠ .

لبة مدينة فى المغرب ناحية المحيط ، ياقوت الحموى ، نفس المرجع ، جـ٥ ، ص١٠.

قادس جزيرة فى غرب الأندلس بالقرب من شذونه ، ياقوت الحموى ، نفس المرجع ، جـ٤ ، ص٢٩٠ .

شريش : مدينة من كورة شذونة وهى قاعدتها ، انظر ياقوت الحموى ، نفس المرجع ، جـ٣ ، ص٣٤٠ .

(٢٠) محمد عبد الله عنان ، نهاية الأندلس ، ص ٢٠ .

(٢١) يقصد بالعدوة المغربية ، بلدان الشمال الأفريقى .

(٢٢) عادل سعيد بشتاوى ، الأندلسيون المواركة ، دراسة فى تاريخ الأندلسيين بعد سقوط غرناطة ، القاهرة ، مطبعة انترناشيونال ، ١٩٨٣ م ، ص ١٧٨ .

(٢٣) يوسف أشباخ ، تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، مكتبة الخانجى ، ١٩٥٨ م ، ص ٤٤٥ .

(٢٤) عادل بشتاوى ، مرجع سابق ذكره ، ص ١٣١ .

(٢٥) كانت سلا عاصمة أقليم فاس عندما كان القوط يحكمون أفريقيا ، وهى محصنة على نهر أبى رقراق ، ويوجد بمصب النهر ميناء ترسو فيه سفن البضائع الأوربيـة ، انظر مـارمول كربخال ، أفريقيا ، الجمعية المغربية للتأليف والنشر ، الرباط ١٩٨٨م ، ترجمة محمد حجى وآخرون ، جـ٢ ، ص ١٣٥ .

(٢٦) أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى:الأستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصرى ومحمد الناصرى ، الدار البيضاء ، دار الكتاب ١٩٥٤ م ، جـ٣ ، ص٢١-٢٢. المعمورة مدينة صغيرة على نهر سبو ، على مقربة من سلا ، وقد أسست لتحمى المصب وتحول دون دخول سفن الأعداء إلى النهر ، وفى جوار المدينـة غابـة بهـا أشـجار البلـوط غليظة الحجم ، انظر الحسن بن محمد الوزان الفاسى ، وصف أفريقيا ترجمة محمد صبحـى ومحمد الأخضر ، الجمعية المغربية ، الرباط ، ١٩٨٠ م ، جـ١ ، ص ١٦٦ .

(٢٧) مارمول كربخال ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٢ ، ص ١٣٥ .

(٢٨) يوسف أشباخ ، مرجع سابق ذكره ، ص ٤٧١ - ٤٧٤ .

(٢٩) حسين مونس ، تاريخ المغرب وحضارته ، بـيروت ، العصـر الحديـث ١٩٩٢ م ، المجلـد الثانى ، جـ ٣ ، ٣ص ٧٨ .

(30) J. H. Elliott: Imperial Spain 1369 , Edward , London , 1980,P.44.

(٣١) غسان على رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين فى البحـر الأحمـر ، جـده ، دار العلـم ١٩٨٥م ، ص١٤ .

(٣٢)محمد عبد اللطيف البحراوى ، فتح العثمانين عدن ، القـاهرة ، دار الـتراث ، ١٩٧٩ م ، ص ٥٣ .

(٣٣)عبد الكريم كريم ، المغرب فى عهد الدولة السعدية ، الدار البيضاء ، شركة الطبع والنشر ١٩٧٧ م ، ص٥ .

(٣٤) محمد عبد اللطيف البحراوى ، مرجع سابق ذكره ، ص ١٢٥ .

(٣٥) ك . م. بانيكار : آسيا والسـيطرة الغربيـة ، ترجمـة عبـد العزيـز جـاويد ، القـاهرة ، دار المعارف ١٩٦٢ ، ص ٢٤ .

(٣٦) عبد الكريم كريم ، مرجع سابق ذكره ، ص٥ .

(٣٧) سبته تقع فى شرق القصر على مستوى الجزيرة الخضراء ، وهى مدينة لها ميناء جيد ، تبعد عن أسبانيا بعشرين ميلاً على مضيق جبل طارق ، انظر مارمول كربخال ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٢، ص ٢١٦ .

(٣٨) عبد الكريم كريم ، مرجع سابق ذكره ، ص ٦ .

(39) Roger Lockye : Habsburg and Bourbon Europe 1470 - 1720 London 1982 .P.31 .

هنرى الملاح أميراً برتغالياً كاثوليكى المذهب .

(٤٠) حسين مؤنس ، مرجع سبق ذكره ،جـ٣ ،ص ٧٨ .

(٤١) جيمس دفي ، الأستعمار البرتغالى فى أفريقيه ، ترجمة الدسوقى المراكبى ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو ، ١٩٦٣ م ، ص ٣٢ .

(٤٢) محمد عبد اللطيف البحراوى ، فتح العثمانيين عدن ، ص ٥٦- ٥٧ .

(٤٣) حسين مؤنس ، مرجع سابق ذكره ، جـ٣ ، ص ٨٠ .

(٤٤) غسان على رمال ، صراع المسلمين مع البرتغال فى البحر الأحمر ، ص١٥ .

(٤٥) حسين مؤنس ، تاريخ المغرب وحضارته ، جـ٣ ، ص ٨٠ .

(٤٦) غسان على رمال ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٥ .

(٤٧) محمد بن تاويت ، تاريخ سبته ، الدار البيضاء ، دار الثقافة ، ١٩٨٢م ، ص ١٧٥ - ١٧٦ .

(٤٨) حسين مؤنس ، مرجع سبق ذكره ، جـ٣ ص ٨٠ .

(٤٩) حسين مؤنس ، مرجع سبق ذكره ، جـ٣ ، ص ٨٠ .

(٥٠) غسان على رمال ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٧-١٨ .

(٥١)حسين مؤنس ، مرجع سبق ذكره ، جـ٣ ، ص٨٠ .

(٥٢) محمد بن تاويت ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٧٩ .

(٥٣) القصر الصغير، مدينة تقع ما بين سبته وطنجه على الشاطىء ، انظر : أبو الحسن الوزان، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤٥ .

(٥٤) حسين مؤنس ، مرجع سبق ذكره ، جـ٣ ، ص ٨٥ ، أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى ، الأستقصاء لأخبار المغرب الأقصى ، جـ ٤ ، ص ١١٤ .

(٥٥) مارمول كربخال ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٢ ، ص٢١٠ .

(٥٦) حسين مؤنس ، مرجع سبق ذكره ، جـ٣ ، ص ٨٥ .

(٥٧) أصيلا : مدينة تقع على شاطىء المحيط الأطلسى ، انظر : الحسن بن محمد الوزان ، مرجع سبق ذكره ، جـ ١، ص ٢٤١ .

(٥٨) مارمول كربخال ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٢ ، ص ٢١٠ .

(٥٩) أزمور مدينة فى دكالة على مصب نهر أم الربيع فى البحر المتوسط ، انظر الحسن بن محمد أبو الوزان ، مرجع سبق ذكره ، جـ ١ ، ص ١٢٤ .

(٦٠) «من حييت بحياته الأرض» يعنى كأنه المطر يحيى الأرض « ومن شعاع عدله طاعته تما» يعنى أنه كان عادلاً فأطاعته الأرض كلها .

(٦١) الفاء زائده والجملة خبر النصارى كلهم ، وحاز الروم كلها حلماً ، يعنى بحلمه طاعته الروم كلها .

(٦٢) كناية الدهين : أصلها الدهاقنه ، والدهقان مرتبة دينية عليا ، لكن اللغة العامية تقلب القاف همزة مضخمة ، وانقلبت هنا مع ياء الجمع إلى ياء مفخمة .

(٦٣) شابل اسم عمله برتغالية .

(٦٤) الفيشين ، اسم عائلة الملك البرتغالىAvis .

(٦٥) الغريب والغرباء = المساكين .

(66) Pierre De Geniral : Saures Inediles L` hisiare

Du Maroc Archives , Et Bibliotheques.
De Portugal - Paris , 1934, Tom l.P.P 9-14 .

(٦٧) دوا منول : يعنى الدوا منول . ودون فى اللغة البرتغالية أى السيد ، ومولى« كناوة الدهبان » يقصد بها رئيس طائفة الرهبان .

(٦٨) نريد من كمال فضلك أن تعمل لنا غرضنا وغرضك (يعنى أن هدفنا وهدفك فيما نطلبك فيه ، ونكون لك مطيعين : بأن الرجل الذى بعث إلى بلادنا ما جاء على عقولنا وخسر عليك (يعنى ضيع عليك) كثيراً ، مالا تقدر من المصالح (وتصلح) ، ونعلمك بأنه ما هو بخير لا مع النصارى ولا مع المسلمين ولا مع اليهود ، ولا يعمل إلا برأيه ، ولا

يستمع لمن يدبر عليه (يعنى يقدم له المشورة) ، ونحن أهل البلد نقول له : اعمل ما يصلح على السلطان وعلى الناس (يعنى ما يحقق مصلحة الدولة ومصلحة الناس) ، وأبى أن يأخذ لنا كلاماً (يعنى رفض أن يسمع لمشورتهم) ، واشتغل أيضاً يشترى المسلمين (يعنى يقرب بعض المسلمين منه) .

(٦٩) ونحن نخاف عليه من المسلمين أن يقتلوه ، ويؤخذ لنا عارك (يعنى يقع علينا العار إذا أخذ لنا أمتك) أما هو ما علينا منه (يعنى هو يكون قد جنى على نفسه) ، وأنت يا سلطان برتقال إذا رغبت أن تنقض حوائجك من بلادنا وأن نكون خدامك تبعث لنا رجلاً آخر يكون مثل (بن مارتن) فيكون عاقلاً وعارفاً بالمسائل ... وهذا لا يرجع إلينا بعد هذه المرة أبداً .

(70) Pierre De Geniral . Op. Cit. Tom l PP. 83- 84 .

(٧١) مستفتح : أى فاتح .

(٧٢) الصواب اللغوى : وسامحناكم .

(73)- Pierre De . Geniral : OP. cit. ; Tom l , P.P 95- 98.

(٧٤) أداة لمسح الأراضى فى القديم .

(٧٥) مارمول كربخال ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٢، ص ٧١٠ .

(٧٦) الحسن بن محمد الوزان ، مرجع سبق ذكره ، جـ ١ ص ١١٦- ١١٨ .

(٧٧) الحسن بن محمد الوزان ، مرجع سبق ذكره ، جـ ١ ، ص١١٦- ١١٨.

(٧٨) أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٤ ، ص ١٤٣ - ١٤٤ .

(٧٩) الحمر : مدينة تقع جنوب مدينة أصيلا ، انظر الحسن بن محمد الوزان ، مرجع سبق ذكره ، جـ ١ ، ص ٢٤١ .

(٨٠) الحسن محمد الوزان ، مرجع سبق ذكره ، جـ ١، ص ٢٤٠ - ٢٤١ .

(٨١) عبد الكريم كريم ، المغرب فى عهد الدولة السعدية ، ص ١١ .

(٨٢) حسن سليمان محمود ، ليبيا بين الماضى والحاضر ، القاهرة ، مؤسسة سجل العرب ، ١٩٦٢ ، ص ١٥٩ .

(٨٣) أحمد توفيق مدنى ، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا ١٤٩٢ - ١٧٩٢ م ، الجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب ، ١٩٨٤ ، ص ٦٤- ٦٥ .

(٨٤) إبراهيم حركات ، المغرب عبر التاريخ ، الدار البيضاء ، دار الرشاد ، ١٩٧٨ م ، جـ ٢، ص ١٩٧ .

(٨٥) محمد خير فارس ، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثمانى إلى الإحتلال الفرنسى ، بيروت ، دار الشروق ، ١٩٧٩ م ص ١٥ .

(٨٦) أحمد توفيق مدنى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٦٥ .

(٨٧) عبد الرحمن بن محمد الجيلالى - تاريخ الجزائر العام ، بيروت ، دار الثقافة ، ، ١٩٨٠ ، جـ ٢ ، ص ١٩٥ - ١٩٨ .

(٨٨) تدلس : آخر مدينة فى أقليم الجزائر من جهة الشرق على ساحل البحر المتوسط ، انظر: مارمول كربخال ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٢، ص ٣٧٢ .

(٨٩) عنابه : أو بونه مدينة عتيقة بناها الرومان على ساحل البحر المتوسط ، انظر حسن محمد الوزان ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٢ ، ص ٦١ .

(٩٠) تطوان : تقع على ضفة نهر قوس الذى ينحدر من الأطلس الكبير ويصب فى المحيط ، انظر مارمول كربخال ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٢، ص ٢٢٢ .

(٩١) شارل أندرى جوليان : تاريخ أفريقيا الشمالية تعريب . محمد مزالى ، البشير بن سلامه ، تونس ، الدار التونسية ، ١٩٨٣ م ، جـ ٢ ، ص ١٨٧- ١٩٩ .

(٩٢) عبد الرحمن الجيلالى ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٢ ، ص ١٩٩ .

(93)- G. H Elliott : Emperial Spain. P. 35

(٩٤) عبد الرحمن الجيلالى ، مرجع سبق ذكره ، جـ٢ ، ص ١٩٩ .

(95) G .H Elliott : op. cit, .P . 35

(٩٦) أحمد توفيق مدنى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٣-٤٤ .

(٩٧) محمد عبده حتامله ، التنصير القصرى بمسلمى الأندلس فى عهد الملكين الكاثولكيين (١٤٧٤/ ١٥١٦) عمان ، الجامعة الأردنية . ١٩٨٠ م ، ص٦٠.

(٩٨) محمد قشتيليو : محنة الموريسكس فى أسبانيا ، تطوان ، مطبعة الشوبخ ، ١٩٨٠ ، ص١٩.

(99) J. H. Elliot : Op. Cit. p. 39

(١٠٠) محمد عبدالله عنان ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣١٥ .

(١٠١) البيازين حى فى مدينة غرناطة ، انظر عادل سعيد بشتاوى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣١٥.

(١٠٢) عادل سعيد بشتاوى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١١- ١١٥ .

(١٠٣) بلفيق إحدى مدن مملكة غرناطة تقع شمال مدينة المريه ، انظر الخريطة ، محمد عبدالله عنان ، مرجع سبق ذكره .

اندرش : بلدة بالأندلس من كورة البيرة ، انظر ياقوت الحموى، مرجع سبق ذكره ، جـ ١ ، ص ٢٦٠ .

(١٠٤) نيخار وجونجار: مدن فى مملكة غرناطة، انظر محمد عبد الله عنان ، مرجع سبق ذكره، ص٣٢٣.

(١٠٥) محمد عبد الله عنان ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٢٣ - ٣٢٥ .

(106) J . H. Elliot : op. cit, p.41.

(١٠٧) شارل أندرى جوليان ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٢ ، ص ٢٥٥ .

(١٠٨) مالقة مدينة بالأندلس عامرة من أعمال ريه سورها على شاطىء البحر بين الجزيرة الخضراء والمرية .

انظر : ياقوت الحموى ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٥ ، ص ٤٣ .

(١٠٩) أحمد توفيق مدنى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٩٧ - ٩٨ .

(١١٠) المغطسين كلمة أسبانية .. Mogakezes

(١١١) أحمد توفيق مدنى ، المرجع السابق ، ص ١٠٣ - ١٠٩ .

(١١٢) الحسن بن محمد الوزان ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٢ ، ص ٣٠ .

(١١٣) الحسن بن محمد الوزان ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٢ ، ص ٣٠ - ٣١ .

(١١٤) أحمد توفيق مدنى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١٩ - ١٢٠ ، ١٢٦ - ١٢٧ .

(115) G. H Elliott , op. cit . p . 42.

(١١٦) أبى عبد الله محمد بن خليل غلبون الطرابلسى : التذكار فيمن ملك طرابلس وماكان بها من أخبار، تحقيق الطاهر أحمد الزاوى الطرابلسى ، طرابلس ، ليبيا ، مكتبة النور ، ١٩٦٧ م ، ص١٠٣.

(١١٧) ابن غلبون ، المرجع السابق ، ص ١٠٤ ، الطاهر أحمد الزاوى ، ولاة طرابلس من بداية الفتح العربى إلى نهاية العهد التركى ، طرابلس ، ١٩٧٠ م ، ص١٤٢ .

(١١٨) شارل فيرو ، الحوليات الليبية منذ الفتح العربى حتى الغزو الإيطالى ، ترجمة محمد عبد الكريم الوافى ، طرابلس ، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلام ، ١٩٣٧ م ، ص ٧٠ - ٧١ .

(١١٩) ابن غلبون ، المرجع السابق ، ص ١٠٥ .

(١٢٠) شارل فيرو ، المرجع السابق ، ص ٧٤ - ٧٥ .

(١٢١) ابن غلبون ، المرجع السابق ، ص ١١١ .

(١٢٢) شارل فيرو ، المرجع السابق ، ص ٧٦ - ٧٧ .

(١٢٣) القنطرة مدينة تقع جنوب جربه على شاطئها .

(١٢٤) مارمول كربخال ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٣ ، ص ١٠٩ .

(١٢٥) الحسن بن محمد الوزان ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٢ ، ص ٩٥ ، مارمول كربخال ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٣ ، ص ١٠٩ - ١١٢ .

(١٢٧) أحمد توفيق مدنى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٤٥ .

(١٢٨) شارل فيرو ، المرجع السابق ، ص ٨٥ .

(١٢٩) قرقنة : جزيرة تقع أمام صفاقس، انظر مارمول كربخال، مرجع سبق ذكره،جـ ٣،ص١٠١.

(١٣٠) أحمد توفيق مدنى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٤٥ .

(١٣١) شارل فيرو ، المرجع السابق ، ص ٨٧ .

(131) Stanford Shouu, A History of the Ottoman Empire and modern Turkey . Cambridge . London, 1976 . p . 96 .

(١٣٢) شارل فيرو ، المرجع السابق ، ص ٨٧ - ٨٨ .

(١٣٣) عبد الرحمن الجيلالى ، تاريخ الجزائر العام ، جـ ٣ ، ص ٣٧ .

(١٣٤) الحسن بن محمد الوزان ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٢ ، ص ٥٢ .

(١٣٥) متيجة بلد فى أواخر أفريقيا (غرب الجزائر) من أعمال بنى حماد ، انظر ياقوت الحموى ، مرجع سبق ذكره ، ٣ .

مليانه: مدينة تقع غرب الجزائر، انظر مارمول كربخال، مرجع سبق ذكره، جـ ٢ ، ص ٣٩٩.

(١٣٦) عبد الرحمن الجيلالى ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٣ ، ص ٣٥ - ٤٤ ، أحمد توفيق مدنى ، مرجع سبق ذكره ، ص١٦٣ - ١٩١ .

ثبت المراجع

١ - إبراهيم حركات ، المغرب عبر التاريخ ، دار الرشاد ، الدار البيضاء ، ١٩٧٨م ، ج٢ .

٢ - أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق : جعفر الناصرى ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، ١٩٥٤م ، ج٣ .

٣ - أبى عبد الله محمد بن خليل غليون الطرابلسى ، التذكار فيمن ملك طرابلس وماكان بها من أخبار . تحقيق : الطاهر أحمد الزاوى الطرابلسى ، مكتبة النور ، طرابلس ، ليبيا ، ١٩٦٧.

٤ - أحمد توفيق مدنى ، الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا ١٤٩٢هـ /١٧٩٢م ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ١٩٨٤م .

٥ - إسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج١ ، ص١ ، المطبعة الأميرية ، مصر ، ١٨٩٤م .

٦ - جيمس دفى ، الاستعمار البرتغالى فى أفريقية . ترجمة : الدسوقى حسين المراكبى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٣م .

٧ - الحسن بن محمد الوزان الفاسى ، وصف أفريقيا ، ترجمة : عمر حجى ومحمد الأخضر ، الجمعية المغربية ، الرباط ، ١٩٨٠م ، ج١ .

٨ - حسن سليمان ، ليبيا بين الماضى والحاضر ، مؤسسة سجل العرب ، القاهرة، ١٩٦٢م .

٩ - حسين مؤنس ، تاريخ المغرب وحضارته ، العصر الحديث ، بيروت ، ١٩٩٢م ، مج٢ ، ج٣ .

١٠ - شارك أندرى جوليان ، تاريخ أفريقيا الشمالية . تعريب محمد مزالى والبشير ابن سلامة ، الدارة التونسية ، تونس ، ١٩٨٣م . ج٢ .

١١ - شارل فيرو ، الحوليات الليبية منذ الفتح العربى حتى الغزو الإيطالى ، ترجمة : محمد عبد الكريم الوافى ، المنشآت العامة للنشر والتوزيع والإعلام ، طرابلس ، ١٩٧٣م .

١٢ - شهاب الدين أبى عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى البغدادى معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، ج٥ .

١٣ - الطاهر أحمد الزاوى ، ولاة طرابلس من بداية الفتح العربى إلى نهاية العهد التركى ، دار الفتح ، طرابلس ١٩٨٠م .

١٤ - عادل سعيد بشتاوى ، الأندلسيون المواركة ، دراسة فى تاريخ الأندلسيين بعد سقوط غرناطة ، مطبعة انترناشيونال ، القاهرة ١٩٨٣م .

١٥ - عبد الرحمن بن محمد الجيلالى ، تاريخ الجزائر العام ، دار الثقافة بيروت ، ١٩٨٠ م. ج٢ .

١٦ - عبد الكريم كريم ، المغرب فى عهد الدولة السعدية ، شركة الطبع والنشر، الدار البيضاء ، ١٩٧٧م .

١٧ - غسان على رمال ، صراع المسلمين مع البرتغاليين فى البحر الأحمر ، دار العلم ، جدة ، ١٩٨٥م .

١٨ - ك. م بانيكار ، آسيا والسيطرة الغربية ترجمة : عبد العزيز جاويد ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٢م .

١٩ - مارمول كربخال ، أفريقيا ، ترجمة : محمد حجى وآخرون ، الجمعية المغربية للتأليف والنشر ، الرباط ، ١٩٨٨م . ج٢ .

٢٠ - محمد بن تاويت ، تاريخ سبته ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ١٩٨٢م .

٢١ - محمد خير فارس ، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثمانى إلى الاحتلال الفرنسى ، دار الشروق ، بيروت ، ١٩٧٩م .

٢٢ - محمد عبد اللطيف البحراوى ، فتح العثمانيين عدن ، دار التراث ، القاهرة ، ١٩٧٩م .

٢٣ - محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس ، لجنة التأليف والنشر ، القاهرة ، القسم الأول .

٢٤ - محمد عبد الله عنان ، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، لجنة التأليف والنشر ، ١٩٦٦م .

٢٥ - محمد عبده حتامله ، التنصير القصرى بمسلمى الأندلس فى عهد الملكين الكاثوليكين (١٤٧٤ - ١٥١٦م) ، الجامعة الأردنية ، عمان ، ١٩٨٠م .

٢٦ - محمد العمروسى المطوى ، الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب ، دار العز الإسلامى ، بيروت ، ١٩٨٢م .

٢٧ - محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق : إحسان حقى ، ط١ - دار النفائس ، بيروت ، ١٩٨١م .

٢٨ - محمد قشتيليو، محنة الموريسكس فىأسبانيا ، مطبعة الشوبح ، تطوان، ١٩٨٠م.

٢٩ - نبيل عبد الحى رضوان ، مذكرات أوروبا فى التاريخ الحديث ، مذكرات لم تنشر .

٣٠ - يوسف أشباخ ، تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة : محمد عبد الله عنان ، مكتبة الخانجى ، ١٩٥٨م .

1. J.H Ellio: Imperlspnin 1369, Edward, London. 1980.
2. Pierre De Geniral : Saures Inediles L'hisiare.
   Dumaroc Arhives, Etbibliothe yues
   De por 4 ugal - Paris, 1934, tom1.
3. Roger Lockye : Habsburg and bour bon Enrope 1470. 1720, London, 1982.
4. S anford shouu : History of the Ottoman Empire and Mobern Turkey. Campridge London, 1976.